منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (1711)السنة السابعة -السبت (30) كانون الثاني 2010

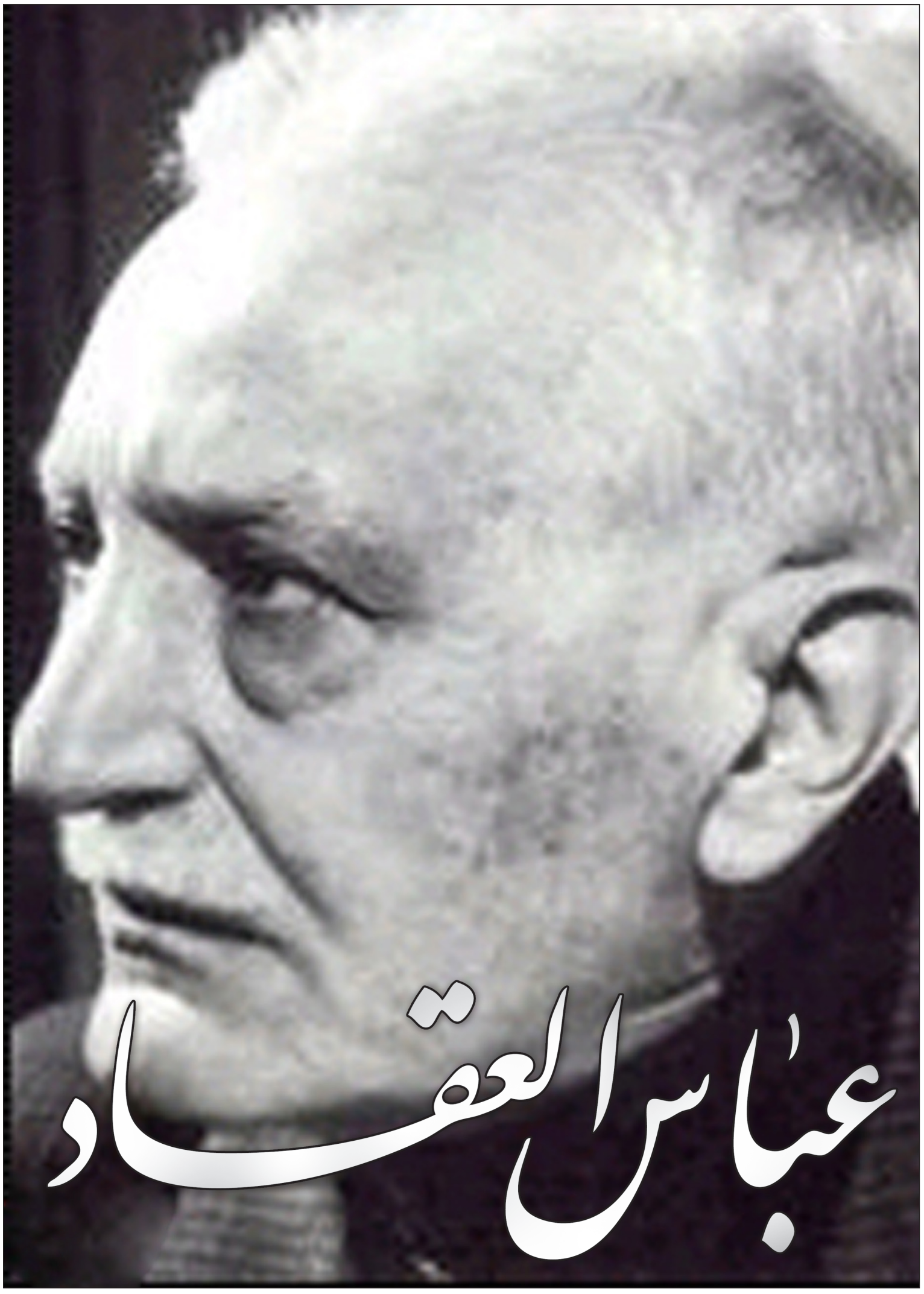

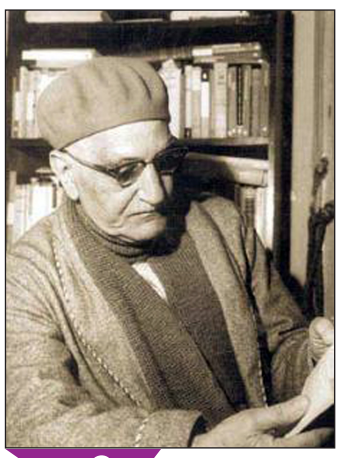

2
العقاد.. رحلة قلم

10
مقالات الباب الواسع

14
العقاد مقاليا

تبوأ العقاد مكانة عالية في النهضة الأدبية الحديثة ندر من نافسه فيها، فهو يقف بين أعلامها، وكلهم هامات سامقة، علمًا شامخًا وقمة باذخة، يبدو لمن يقترب منه كالبحر العظيم من أي الجهات أتيته راعك اتساعه، وعمقه، أو كقمة الهرم الراسخ لا ترقى إليه إلا من قاعدته الواسعة، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره من المواهب والملَكات، فهو كاتب كبير، وشاعر لامع، وناقد بصير، ومؤرخ حصيف، ولغوي بصير، وسياسي حاذق، وصحفي نابه، ولم ينل منزلته الرفيعة بجاه أو سلطان، أو بدرجات، وشهادات، بل نالها بمواهبه المتعددة، وهمته العالية، ودأبه المتصل، عاش من قلمه وكتبه، وترفع عن الوظائف والمناصب لا كرها فيها، بل صونًا لحريته واعتزازًا بها، وخوفًا من أن تنازعه الوظائف عشقه للمعرفة.

العقاد.. رحلة قلم

عبد الجبار داود البصري

شباب وإباء

وحياة العقاد سلسلة طويلة من الكفاح المتصل والعمل الدؤوب، صارع الحياة والأحداث وتسامى على الصعاب، وعرف حياة السجن وشظف العيش، واضطهاد الحكام، لكن ذلك كله لم يُوهِنْ عزمه أو يصرفه عما نذر نفسه له، خلص للأدب والفكر مخلصًا له، وترهب في محراب العلم؛ فأعطاه ما يستحق من مكانة وتقدير.

المولد والنشأة

في مدينة أسوان بصعيد مصر، وُلِدَ عباس محمود العقاد في يوم الجمعة الموافق (٢٩ من شوال ١٣٠٦هـ= ٢٨ من يونيو ١٨٨٩)، ونشأ في أسرة كريمة، وتلقى تعليمه الابتدائي بمدرسة أسوان الأميرية، وحصل منها على الشهادة الابتدائية سنة (١٣٢١هـ= ١٩٠٣م) وهو في الرابعة عشرة من عمره.

وفي أثناء دراسته كان يتردد مع أبيه على مجلس الشيخ أحمد الجداوي، وهو من علماء الأزهر الذين لزموا جمال الدين الأفغاني ، وكان مجلسه مجلس أدب وعلم، فأحب الفتى الصغير القراءة والاطلاع، فكان مما قرأه في هذه الفترة "المُسْتَطْرَف في كل فن مستظرف" للأبشيهي، و"قصص ألف ليلة وليلة"، وديوان البهاء زهير وغيرها، وصادف هذا هوى في نفسه، ما زاد إقباله على مطالعة الكتب العربية والإفرنجية، وبدأ في نظم الشعر.

ولم يكمل العقاد تعليمه بعد حصوله على الشهادة الابتدائية، بل عمل موظفًا في الحكومة بمدينة قنا سنة (١٣٢٣هـ= ١٩٠٥م) ثم نُقِلَ إلى الزقازيق سنة (١٣٢٥هـ= ١٩٠٧م) وعمل في القسم المالي بمديرية الشرقية، وفي هذه السنة توفي أبوه، فانتقل إلى القاهرة واستقر بها.

عاد العقاد سنة (١٣٣١هـ= ١٩١٢م) إلى الوظيفة بديوان الأوقاف، لكنه ضاق بها، فتركها، واشترك في تحرير جريدة المؤيد التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف، وسرعان ما اصطدم بسياسة الجريدة، التي كانت تؤيد الخديوي عباس حلمي

الاشتغال بالصحافة

زيارة طلبة الكلية العسكرية للعقاد في مكتبه

ضاق العقاد بحياة الوظيفة وقيودها، ولم يكن له أمل في الحياة غير صناعة القلم، وهذه الصناعة ميدانها الصحافة، فاتجه إليها، وكان أول اتصاله بها في سنة (١٣٢٥هـ= ١٩٠٧م) حين عمل مع العلامة محمد فريد وجدي في جريدة الدستور اليومية التي كان يصدرها، وتحمل معه أعباء التحرير والترجمة والتصحيح من العدد الأول حتى العدد الأخير، فلم يكن معهما أحد يساعدهما في التحرير.

وبعد توقف الجريدة عاد العقاد سنة (١٣٣١هـ= ١٩١٢م) إلى الوظيفة بديوان الأوقاف، لكنه ضاق بها، فتركها، واشترك في تحرير جريدة المؤيد التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف، وسرعان ما اصطدم بسياسة الجريدة، التي كانت تؤيد الخديوي عباس حلمي، فتركها وعمل بالتدريس فترة مع الكاتب الكبير إبراهيم عبد القادر المازني، ثم عاد إلى الاشتغال بالصحافة في جريدة الأهالي سنة (١٣٣٦هـ= ١٩١٧م) وكانت تَصْدُر بالإسكندرية، ثم تركها وعمل بجريدة الأهرام سنة (١٣٣٨هـ= ١٩١٩م) واشتغل بالحركة الوطنية التي اشتغلت بعد ثورة ١٩١٩م، وصار من كُتَّابها الكبار مدافعًا عن حقوق الوطن في الحرية والاستقلال، وأصبح الكاتب الأول لحزب الوفد، المدافع عنه أمام خصومه من الأحزاب الأخرى،

له في السياسة عدة كتب يأتي في مقدمتها: "الحكم المطلق في القرن العشرين"، و"هتلر في الميزان"، وأفيون الشعوب"، و"فلاسفة الحكم في العصر الحديث"، و"الشيوعية والإسلام"، و"النازية والأديان"، و"لا شيوعية ولا استعمار".

ودخل في معارك حامية مع منتقدي سعد زغلول زعيم الأمة حول سياسة المفاوضات مع الإنكليز بعد الثورة. وبعد فترة انتقل للعمل مع عبد القادر حمزة سنة (١٣٤٢هـ= ١٩٢٣م) في جريدة البلاغ، وارتبط اسمه بتلك الجريدة، وملحقها الأدبي الأسبوعي لسنوات طويلة، ولمع اسمه، وذاع صيته وانْتخب عضوا بمجلس النواب، ولن يَنسى له التاريخ وقفته الشجاعة حين أراد الملك فؤاد إسقاط عبارتين من الدستور، تنص إحداهما على أن الأمة مصدر السلطات، والأخرى أن الوزارة مسؤولة أمام البرلمان، فارتفع صوت العقاد من تحت قبة البرلمان على رؤوس الأشهاد من أعضائه قائلا: "إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور ولا يصونه"، وقد كلفته هذه الكلمة الشجاعة تسعة أشهر من السجن سنة (١٣٤٩هـ= ١٩٣٠م) بتهمة العيب في الذات الملكية.

وظل العقاد منتميًا لحزب الوفد حتى اصطدم بسياسته تحت زعامة مصطفى النحاس باشا في سنة (١٣٥٤هـ= ١٩٣٥م) فانسحب من العمل السياسي، وبدأ نشاطُه الصحفي يقل بالتدريج وينتقل إلى مجال التأليف، وإن كانت مساهماته بالمقالات لم تنقطع إلى الصحف، فشارك في تحرير صحف روزاليوسف، والهلال، وأخبار اليوم، ومجلة الأزهر.

مؤلفات العقاد

المستقبل في عيون مفكر

عُرف العقاد منذ صغره بنهمه الشديد في القراءة، وإنفاقه الساعات الطوال في البحث والدرس، وقدرته الفائقة على الفهم والاستيعاب، وشملت قراءاته الأدب العربي والآداب العالمية فلم ينقطع يومًا عن الاتصال بهما، لا يحوله مانع عن قراءة عيونهما ومتابعة الجديد الذي يصدر منهما، وبلغ من شغفه بالقراءة أنه يطالع كتبًا كثيرة لا ينوي الكتابة في موضوعاتها حتى إن أديبًا زاره يومًا، فوجد على مكتبه بعض المجلدات في غرائز الحشرات وسلوكها، فسأله عنها، فأجابه بأنه يقرأ ذلك توسيعًا لنهمه وإدراكه، حتى ينفذ إلى بواطن الطبائع وأصولها الأولى، ويقيس عليها دنيا الناس والسياسة.

وكتب العقاد عشرات الكتب في موضوعات مختلفة، فكتب في الأدب والتاريخ والاجتماع مثل: مطالعات في الكتب والحياة، ومراجعات في الأدب والفنون، وأشتات مجتمعة في اللغة والأدب، وساعات بين الكتب، وعقائد المفكرين في القرن العشرين، وجحا الضاحك المضحك، وبين الكتب والناس، والفصول، واليد القوية في مصر.

ووضع في الدراسات النقدية واللغوية مؤلفات كثيرة، أشهرها كتاب "الديوان في النقد والأدب" بالاشتراك مع المازني، وأصبح اسم الكتاب عنوانًا على مدرسة شعرية عُرفت بمدرسة الديوان، وكتاب "ابن الرومي حياته من شعره"، وشعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، ورجعة أبي العلاء، وأبو نواس الحسن بن هانئ، واللغة الشاعرية، والتعريف بشكسبير.

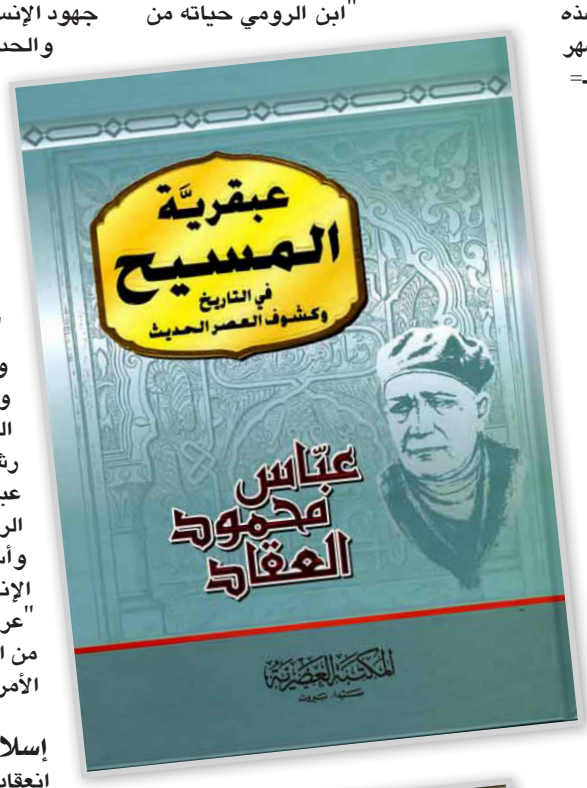

وله في السياسة عدة كتب يأتي في مقدمتها: "الحكم المطلق في القرن العشرين"، و"هتلر في الميزان"، وأفيون الشعوب"، و"فلاسفة الحكم في العصر الحديث"، و"الشيوعية والإسلام"، و"النازية والأديان"، و"لا شيوعية ولا استعمار".

وهو في هذه الكتب يحارب الشيوعية والنظم الاستبدادية، ويمجد الديمقراطية التي تكفل حرية الفرد، الذي يشعر بأنه صاحب رأي في حكومة بلاده، وبغير ذلك لا تتحقق له مزية، وهو يُعدُّ الشيوعية مذهبًا هدَّامًا يقضي على جهود الإنسانية في تاريخها القديم والحديث، ولا سيما الجهود التي بذلها الإنسان للارتفاع بنفسه من الإباحية الحيوانية إلى مرتبة المخلوق الذي يعرف حرية الفكر وحرية الضمير.

وله تراجم عميقة لأعلام من الشرق والغرب، مثل "سعد زغلول، وغاندي وبنيامين فرانكلين، ومحمد علي جناح، وعبد الرحمن الكواكبي، وابن رشد، والفارابي، ومحمد عبده، وبرناردشو، والشيخ الرئيس ابن سينا".

وأسهم في الترجمة عن الإنجليزية بكتابين هما "عرائس وشياطين، وألوان من القصة القصيرة في الأدب الأمريكي".

إسلاميات العقاد

انعقاد مجمع اللغة العربية برئاسةلطفي السيد ولحظة انفعال من العقاد

تجاوزت مؤلفات العقاد الإسلامية أربعين كتابًا، شملت جوانب مختلفة من الثقافة الإسلامية، فتناول أعلام الإسلام في كتب ذائعة، عرف كثير منها باسم العبقريات، استهلها بعبقرية محمد، ثم توالت باقي السلسلة التي ضمت عبقرية الصديق، وعبقرية عمر، وعبقرية علي، وعبقرية خالد، وداعي السماء بلال، وذو النورين عثمان، والصديقة بنت الصديق، وأبو الشهداء وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، وفاطمة الزهراء والفاطميون.

وهو في هذه الكتب لا يهتم بسرد الحوادث، وترتيب الوقائع، وإنما يعني برسم صورة للشخصية تُعرِّفنا به، وتجلو لنا خلائقه وبواعث أعماله، مثلما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين.

وقد ذاعت عبقرياته واُشتهرت بين الناس، وكان بعضها موضوع دراسة الطلاب في المدارس الثانوية في مصر، وحظيت من التقدير والاحتفاء بما لم تحظ به كتب العقاد الأخرى.

وألَّف العقاد في مجال الدفاع عن الإسلام عدة كتب، يأتي في مقدمتها: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، والفلسفة القرآنية، والتفكير فريضة إسلامية، ومطلع النور، والديمقراطية في الإسلام، والإنسان في القرآن الكريم، والإسلام في القرن العشرين وما يقال عن الإسلام.

وهو في هذه الكتب يدافع عن الإسلام أمام الشبهات التي يرميه بها خصومه وأعداؤه، مستخدمًا علمه الواسع وقدرته على المحاجاة والجدل، وإفحام الخصوم بالمنطق السديد، فوازن بين الإسلام وغيره وانتهى من الموازنة إلى شمول حقائق الإسلام وخلوص عبادته وشعائره من شوائب الملل الغابرة حين حُرِّفت عن مسارها الصحيح، وعرض للنبوة في القديم والحديث، وخلص إلى أن النبوة في الإسلام كانت كمال النبوات، وختام الرسالات وهو يهاجم الذين يدعون أن الإسلام يدعو إلى الانقياد والتسليم دون تفكير وتأمل، ويقدم ما يؤكد على أن التفكير فريضة إسلامية، وأن مزية القرآن الأولى هي التنويه بالعقل وإعماله، ويكثر من النصوص القرآنية التي تؤيد ذلك، ليصل إلى أن العقل الذي يخاطبه الإسلام هو العقل الذي يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأشياء.

وقد رد العقاد في بعض هذه الكتب ما يثيره أعداء الإسلام من شبهات ظالمة يحاولون ترويجها بشتى الوسائل، مثل انتشار الإسلام بالسيف، وتحبيذ الإسلام للرق، وقد فنَّد الكاتب هذه التهم بالحجج المقنعة والأدلة القاطعة في كتابه "ما يقال عن الإسلام".

شاعرية العقاد

لم يكن العقاد كاتبًا فذا وباحثًا دؤوبًا ومفكرًا عميقًا، ومؤرخًا دقيقًا فحسب، بل كان شاعرًا مجددًا، له عشرة دواوين، هي: يقظة الصباح، ووهج الظهيرة، وأشباح الأصيل، وأعاصير مغرب، وبعد الأعاصير، وأشجان الليل، ووحي الأربعين، وهدية الكروان، وعابر سبيل، وديوان من دواوين، وهذه الدواوين العشرة هي ثمرة ما يزيد على خمسين عامًا من التجربة الشعرية.

ومن أطرف دواوين العقاد ديوانه "عابر سبيل" أراد به أن يبتدع طريقة في الشعر العربي، ولا يجعل الشعر مقصورًا على غرض دون غرض، فأمور الحياة كلها تصلح موضوعًا للشعر؛ ولذا جعل هذا الديوان بموضوعات مستمدة من الحياة، ومن الموضوعات التي ضمها الديوان قصيدة عن "عسكري المرور" جاء فيها:

متحكم في الراكبين
وما لـه أبدًا ركوبة
لهم المثوبة من بنانك
حين تأمر والعقوبة
مُر ما بدا لك في الطريق
ورض على مهل شعوبه
أنا ثائر أبدًا وما في
ثورتي أبدًا صعوبة
أنا راكب رجلي فلا
أمْرٌ عليَّ ولا ضريبة

تقدير العقاد

لقي العقاد تقديرا وحفاوة في حياته من مصر والعالم العربي، فاختير عضوًا في مجمع اللغة العربية بمصر سنة (١٣٥٩هـ= ١٩٤٠م) فهو من الرعيل الأول من أبناء المجمع، واخْتير عضوًا مراسلا في مجمع اللغة العربية بدمشق، ونظيره في العراق، وحصل على جائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة (١٣٧٩هـ= ١٩٥٩م).

وتُرجمت بعض كتبه إلى اللغات الأخرى، فتُرجم كتابه المعروف "الله" إلى الفارسية، ونُقلت عبقرية محمد وعبقرية الإمام علي، وأبو الشهداء إلى الفارسية، والأردية، والملاوية، كما تُرجمت بعض كتبه إلى الألمانية والفرنسية والروسية.

وكان أدب العقاد وفكره ميدانًا لأطروحات جامعية تناولته شاعرًا وناقدًا ومؤرخًا وكاتبًا، وأطلقت كلية اللغة العربية بالأزهر اسمه على إحدى قاعات محاضراتها، وبايعه طه حسين بإمارة الشعر بعد موت شوقي، وحافظ إبراهيم، قائلا: "ضعوا لواء الشعر في يد العقاد، وقولوا للأدباء والشعراء أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء، فقد رفعه لكم صاحبه".

وقد أصدرت دار الكتب نشرة بيلوغرافية وافية عن مؤلفات العقاد، وأصدر الدكتور حمدي السكوت أستاذ الأدب العربي بالجامعة الأمريكية كتابًا شاملا عن العقاد، اشتمل على بيلوغرافية لكل إنتاج العقاد الأدبي والفكري، ولا تخلو دراسة عن الأدب العربي الحديث عن تناول كتاباته الشعرية والنثرية.

واشْتُهر العقاد بصالونه الأدبي الذي كان يعقد في صباح كل جمعة، يؤمه تلامذته ومحبوه، يلتقون حول أساتذتهم، ويعرضون لمسائل من العلم والأدب والتاريخ دون الإعداد لها أو ترتيب، وإنما كانت تُطْرح بينهم ويُدلي كل منهم بدلوه، وعن هذه الجلسات الشهيرة أخرج الأستاذ أنيس منصور كتابه البديع " في صالون العقاد".

وفاة العقاد

ظل العقاد عظيم الإنتاج، لا يمر عام دون أن يسهم فيه بكتاب أو عدة كتب، حتى تجاوزت كتُبُه مئةَ كتاب، بالإضافة إلى مقالاته العديدة التي تبلغ الآلاف في بطون الصحف والدوريات، ووقف حياته كلها على خدمة الفكر الأدبي حتى لقي الله في (١٢ من مارس ١٩٦٤م.

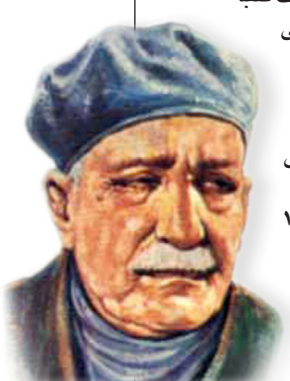

مجلة الاقلام
١٩٨٢

عباس محمود العقاد ومدرسة الديوان

سُئل العقاد عن الفرق بينه وبين المفكر والكاتب الإنكليزي برنارد شو. فقال: برنارد شو يقف على أكتاف ستة أجيال من الثقافة الأوربية. أما أنا فأقف على قدمي...). هكذا كان العقاد يرى رسالته، وسواء كان مخطئًا أم محقًا، فقد ترك في الثقافة العربية أثرًا لا يمحى.

كانت هذه رسالة العقاد ودوره في الانتقال من عصر إلى عصر شأنه في ذلك شأن قادة الفكر ممن كانت رسالتهم وأدوارهم ليست في أن يزيدوا المعرفة بمعرفة من جنسها، وإنما كانت في أن يغيّروا من نوع المعرفة، وينقلوها إلى أسلوب جديد ومفيد.

ويمكن أن يلمس القارئ تلك الرسالة وذلك الدور بمقارنة حال الثقافة في بدايات القرن العشرين حيث بدأ العقاد يتلمّس طريقه. وحالها في ستينياته.

عندئذ يندهش المرء في كيفية قيام العقاد بهذه الرسالة وذلك الدور وهو الذي لا يحمل لقبًا علميًا يسنده ولا سلطانا يعزه، ولا جاها عريضا يدعمه، ولا مالا وفيرا يحميه. وتزيد الدهشة إذا أدركنا أن العقاد لم يكن ممن يجيدون لعبة ركوب الموجة، فلا ينافق ولا يتملّق ولا يزايد....إنما العقاد كان مقاتلاً على الدوام. فهو يحارب الصهيونية محاربته للنازية، ويحارب الشيوعية محاربته للرأسمالية، ويحارب الاستعمار محاربته للمتاجرين بالوطنية، ويحارب الإلحاد محاربته لأدعياء الدين، ويحارب ممثلي الأقلية محاربته لممثلي الأغلبية.

د فائز كريم

ويحارب القصر محاربته للباشوات، ويتخذ من هذه جميعا مواقف، تجسّد رأيه الخاص الذي يعبّر عنه قائلاً: (....أريد أن أكون أنا نفسي لا أكثر ولا أقل...).

وطبيعي أن يكون صاحب هذه الرسالة وذاك الدور موضع اهتمام الدارسين داخل الجامعة، اهتمامًا يتخذ أحد ثلاثة أشكال: إما بتخصيص الرسائل العلمية لتقييمه أو بإعداد الاهتمامات الجامعية أو الدراسات النقدية المنشورة بالصحف والمجلات التي تدور حول فكره وفي عملية الرصد لهذه الرسائل والمحاضرات والدراسات قد يلمح القارئ اشتمالها على نقد لا يعطى العقاد حقه أو مدح يعطيه أكثر من حقه، إلا أن هذا وذاك لا يطغى على المعنى النبيل الذي من أجله أجرى الباحث قلمه في تناول فكر هذا الرائد العظيم.

الرسالة الجامعية

وأولى هذه الرسائل منشورة في كتاب (العقاد ناقدا) التي قدمها الدكتور عبدالحي دياب إلى كلية دار العلوم، وناقشها الدكاترة محمد غنيمي هلال ومحمد مندور وشوقي ضيف. كان موضوعها (النقد عند العقاد) وفيها عنى الباحث في الباب الأول بالميراث النقدي قبل العقاد، وذلك في المحاولات النقدية السابقة عليه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم المحاولات النقدية المعاصرة، وكان من طلائع أعلامها ويخصص بابها الثاني لاتجاهات التجديد في النقد عند العقاد كتطبيق لنظريته النقدية. والباب الثالث خصصه للحديث عن المعارك النقدية، وكيف كان لها أثر في تعميق نظرياته النقدية أو إضافة جديد إليها، وختمها بتسجيل دور العقاد في الثقافة المعاصرة نقدًا وأدبًا.

والرسالة الثانية مخطوطة وقدمها الأديب الحساني حسن عبدالله بمعهد الدراسات العربية وموضوعها (فلسفة الجمال عند العقاد وعلاقتها بآرائه في النقد) وناقشها الدكاترة شكري عياد وخلف الله أحمد ويحيى هويدي. واستهلها الباحث بدراسة لمنهج البحث في أصالة العقاد النقدية، منتهيا في ذلك إلى أن الأصالة بوجه عام ضوء متوهج لا تملك عين نكرانه وأنها لا تعرف عن طريق البحث المعملي. وأن نصيب العقاد من ذلك الضوء كنصيب غيره من أصحاب الأصالات المعتمدة. ثم عرض بعد ذلك لبعض الدعاوى عن تأثر العقاد بالأجانب وتوقف طويلا عند مصطلح التأثر مستحسنا العدول عنه إلى أحد مصطلحات ثلاثة هي (الإفادة) أو (التقلد) أو (السرقة)، وأنه من اللازم عند درس الأصالة تحديد المقصود بالتأثر أهو مجرد إفادة أم تقليد أم سرقة؟ وانتهى في رسالته إلى فحص اتهام العقاد بأنه تأثر بالشاعر الألماني شيلر. وأجرى مقارنة دقيقة بين الاثنين أكّدت اختلاف معين كل منهما.

والرسالة الثالثة مخطوطة أيضا قدمها الأستاذ محمد عبدالهادي محمود لآداب القاهرة، وموضوعها (نظرية الصورة الشعرية عند مدرسة الديوان) وأشرف عليها الدكاترة شكري عياد وعز الدين إسماعيل وسهير القلماوي. وبالطبع كان العقاد يستأثر بالجانب الأكبر من الرسالة، حيث نجد الباحث يعرض نظرية الخيال الشعري عند العقاد، وكيف كان أثره في كل من (بليك) و(كولريدج) و(وردزوورث) و(شيللي) و(كيتس). ثم نظرية الجمال عند العقاد، وهو في هذا الجزء يرد ضمنيا على الذين كتبوا عن أصالة العقاد في نظرته للجمال. ثم يحدّثنا عن مشكلة الشكل والمضمون وفيها يغلو الباحث في نقد النقاد، ثم يبحث عن علاقة الشعر باللغة عند العقاد، فيبدو متأثرا بمنهج الدكتور محمد مندور. ويتطرق إلى دراسة مشكلة الإبداع عند العقاد ، فيرى أن هناك هوّة كبيرة بين مفهوم الإبداع الفني المعاصر وإبداع العقاد خصوصا في ممارساته الشعرية.

والرسالة الرابعة مخطوطة كان قد قدمها للجامعة الإسبانية الدكتور عبداللطيف عبدالحليم، وناقشتها لجنة مكونة من خمسة من أساتذة الجامعات هناك يتقدمهم عاشقان للثقافة العربية هما (بدرو مارتينث مونتابث) و(خوسيه باثكث) وموضوعها (دراسة بين العقاد وأونامونو) باللغة الإسبانية.

ولكونها بهذه اللغة كنت عاجزًا أمامها إلا أن الذي يطمئن المرء عن أهمية هذه الرسالة أن صاحبها من أخلص تلاميذ العقاد وأكثرهم جدية، ولعلي تذكرت بهذه المناسبة أستاذنا الدكتور عبدالرحمن بدوي بالخير، وكيف كان يتشدد معنا كتلاميذ في قراءة النصوص الفلسفية بلغاتها الأصلية في الإنجليزية والفرنسية والألمانية واليونانية واللاتينية.

وكيف لاحظ تبرمنا من اللغات الخمس يومها قال بحدة: (وددت لو جعلتها عشرا حتى لا تكونوا معصوبي العيون أمام أي معرفة من المعارف) فها أنذا الآن معصوب العينين أمام هذه الرسالة؟!

وسأكتفي بالرجوع إلى ما كتبه عنها صاحبها بالعربية في المجلات المتخصصة راجيًا أن تتدارك ذلك الجامعة التي هو عضو في هيئة تدريسها فتكلفه بترجمتها معترفة بأن ما يقوم به إعمال للفكر عليه يثاب، أو حتى وزارة الثقافة فتعمل على تكليفه بترجمتها.. ونعود إلى ما كتبه الباحث عن رسالته، وقد أصبح قدره ألا نقرأه إلا موجزا فنراه يحدّثنا عن الظروف السياسية والاجتماعية والأدبية في كل من مصر وإسبانيا في الفترة ما بين ١٨٥٠-١٩٥٠ موضحًا كيف كانت هذه الظروف متشابهة. وكيف نشأ كل من العقاد في مصر و(أونامونو) مستهدفا مكونات تفكير كل منهما المتشابهة حتى يصل إلى تشابه بين الاثنين في مفهوم الأدب عامة والشعر خاصة، وينتهي في رسالته إلى إثبات هذا التشابه الكامل حتى في موضوعاتهما الشعرية مع أن العقاد لم يطّلع كثيرًا على (أونامونو) في لغته.

والرسالة الخامسة منشورة في كتابي (عباس العقاد رجل الصحافة رجل السياسة) و(العقاد زعيما) للدكتور راسم الجمال وناقشتها بكلية الإعلام الدكاترة عبدالملك عودة وخليل صابات ومختار التهامي وكان موضوعها العقاد في تاريخ الصحافة المصرية من ١٩٠٧ إلى ١٩٦٤، وفيها تتبع الباحث مسار فكر العقاد وكتاباته في الصحف مبرزا كفاحه الصحفي والسياسي حتى عام ١٩٣٠، حيث تمت محاكمته بتهمة العيب في الذات الملكية. ثم تتبع الباحث مسار فكر العقاد من عام ١٩٣٠ إلى ١٩٦٤. وفي ذلك تحول من كاتب سياسي إلى زعيم سياسي، حيث دفع زعماء الوفد إلى إعلان موقفهم عام ١٩٣٢، وعبأ الرأي العام ضد السياسة الإنكليزية، ومهّد لانشقاق السعديين

عن زعامة الوفد، وأكّد الباحث على أمرين، أولهما مكانة العقاد السياسية والصحفية، وإثبات مدى صدق بصيرته الوطنية.
وكما ذكرنا أنه إذا كان العقاد لم يظفر بلقب علمي يعزّه، ولا مؤهل جامعي يحميه، ولو حتى شهادة متوسطة يستتّر وراءها، فقد استطاع بمواقفه العظيمة، وأعماله الخالدة – أن يجتاز الباب الضيق، إلى دائرة الاهتمام العلمي بالجامعة، فكان محور اهتمام عدد كبير من الرسائل كما رأينا، وعدد أكبر من المحاضرات والدراسات كما سنرى. ولا عجب إن حظي العقاد بكل هذا التقدير في جامعات مصر وحدها، إذا كان هو العقاد الذي نعرفه صاحب الرسالة والهدف، وأحد روّاد التنوير ممن كانوا لا يعيشون الحاضر بعقل الماضي، ولا يترجمون الواقع بلغة الوهم، ولا ينقلون الحقيقة بصورة الخرافة، ولا يكتبون بأيديهم ما ترفضه عقولهم.

وجهات نظر مختلفة

وطبيعي أن يكون حول العقاد وهو بهذه المكانة اختلافات في وجهات النظر عند التقييم يمكن أن نجملها في فريقين، أولهما مترفق في تنظيره، وثانيهما صارم في تطبيقه، ولكنهما ينتهيان إلى توكيد ريادة هذا المفكر.
من الفريق الأول الدكتور شوقي ضيف، لقد كتب عن العقاد فصولا في كتبه (مذاهب الأدب) و(الأدب العربي المعاصر) و(فصول في الشعر ونقده)، وأفرد له كتابا يعتبر المرجع الأساسي للدارسين هو (مع العقاد) وهو تصوير مجمل لسيرة العقاد، وما امتازت به شخصيته من مقومات مادية ونفسية وعقلية وروحية. وكيف دفع مع جيله أدبنا الحديث إلى تطوره الحي المثمر، وكيف استحدث موازين جديدة للنقد، وكيف جال بفكره في تاريخنا الإسلامي مقدما عظماء هذا التاريخ، راسمًا لأمتنا عبقرياتها وشخصياتها، وتطرق إلى إبداعه القصصي، وتوقف طويلا عند إنتاجه الشعري الضخم.
والاهتمام الثاني لرائد الفلسفة الجوانية الدكتور عثمان أمين في صورة كتاب (نظرات في فكر العقاد)، وفيه ينبهنا إلى أن ما يقدمه ليس نظرًا وافيًا في فكر العقاد بقدر ما يكون مقدما لهذا الفكر. وهو مع هذا يقدم على صفحات الكتاب نظرات واعية لأدب العقاد وفلسفته وإسلامياته، ويؤصل ذلك وكأنه يعطي للباحث عشرات المفاتيح إلى هذه الموضوعات كذلك يرى سمات الفلسفة الجوانية في أدب العقاد على وجه الخصوص وروايته (سارة) التي يراها جوانية لا تشغل الأحداث الخارجية منها إلا ما يلزم حبكتها الفنية. ويقرر أن حياتنا الأدبية بلغت بجهده ويقظته تقدما ملحوظا.
والاهتمام الثالث لرائد الوضعية المنطقية الدكتور زكي نجيب محمود ويترجمه هذا الجانب الكبير في كتابه (مع الشعراء) وفيه يقدم لنا العقاد مفكرا وأديبا. ويستخلص فلسفته من شعره، بطريقة تحليلية مذهلة، ويتوقف عند شعره فيراه أقرب شيء إلى فن العمارة والنحت، فالقصيدة عنده أقرب إلى هرم ضخم أو معبد كبير منها إلى زهرة أو عصفورة. والقلم في يده هو إزميل النحات، فلا الفكرة عنده قريبة المنال، ولا المادة سهلة التشكيل، حتى ينتهي إلى القول بأن شعر العقاد أدخل في باب (الجليل) منه في باب (الجميل) ففيه شموخ الجبال وصلابة الصوان وعمق المحيط، وفيه من الشعور صحوه لا نعاسه.
والاهتمام الرابع للدكتورة سهير القلماوي في صورة محاضرة نشرت فيما بعد بمجلة الهلال بعنوان (سارة.. أو عبقرية الشك) فيها تفلسف حال الشك الإنساني عند العقاد من خلال أحداث رواية سارة، فترى أن عبقرية الشك العقادي صنف من عبقرياته شاذ فريد، لكنه يخضع لمنهج العقاد في تصوير العبقرية، والشك هنا عملاق يتقبل آثار الأحداث والتاريخ، ولكنه يتصدى لها.
والاهتمام الخامس للدكتورة نعمات أحمد فؤاد في صورة كتاب (الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد) وفيه نلمح محاور ثلاثة يتضمنها حديثها الرقيق المتميّز عن الحرية والجمال والشخصية الإنسانية عند العقاد. وقد شغل المحور الأخير معظم صفحات الكتاب، وفيه حدّثتنا عن عبقريات العقاد وموقفه من المرأة، والإنسانية في شعره وأدبه، ثم قدمت لنا العقاد حين يترجم لنفسه.
والاهتمام السادس يأخذ شكل ثلاثة كتب هي (عبقرية العقاد) و(النقد والجمال عند العقاد) و(الفلسفة الاجتماعية عند العقاد) وفيها يؤرخ الدكتور عبدالفتاح الديدي لأستاذه من جوانب كثيرة، أهمها شخصيته المتفرّدة، ونظرية النقد وعلاقتها بالجمال ومؤثراتها الخارجية، ثم الجانب الفلسفي عند العقاد.
والاهتمام السابع كتاب ضخم هو رسالة جامعية للدكتور محمد أبو الأنوار عنوانه (الحوار الأدبي حول الشعر) ويشغل العقاد منه جانبًا كبيرًا وفيه يسجل لمعارك مدرسة الديوان، وظهور كتاب الديوان كفاصل بين عهدين، والخصومة التي نشأت بين رواد الديوان، ثم استمرار جهود هذه المدرسة ممثلة في العقاد إلى آخر هذه الموضوعات التي كان العقاد فارسها.
وفي المقابل هناك الفريق الثاني الذي يتقدمه شيخ النقاد الدكتور محمد مندور، حيث يخصص فصولاً من كتبه (الشعر المصري بعد شوقي) و(النقد والنقاد المعاصرون) و(في الميزان الجديد) و(مسرحيات شوقي) للحديث عن العقاد الناقد والأديب والكاتب. فيراه يقحم النظريات الفلسفية في ميدان الأدب، حيث يتحدث عن (رسالة الغفران) للمعري، ويرى أن دراسات العقاد الأدبية تنصبّ على التعليل والتفسير أكثر من انصبابها على التقويم والنظر في القيم الجمالية، ويراه يختار الشعراء الذين تنطبق عليهم فلسفته العامة في الحياة، ويعيب على العقاد استخدامه للمنهج النفسي فحسب في الدراسات الأدبية، ويختلف معه في النظرة إلى الشعر الحديث عامة والمهموس خاصة.

اتجاهات مضادة

والاهتمام الثاني من هذا الاتجاه المضاد يمثله كتابان للدكتور عبدالقادر القط، فيهما يحتل العقاد حيزًا ملحوظا الأول (مواقف وقضايا) والذي يفرد فيه فصلا عن اللغة الشاعرة عند العقاد فيشير إلى غلبة الشعور القومي عند العقاد على الحقيقة العلمية، كما يشير إلى النقص المنهجي عند العقاد الناتج عن هذه الأنانية القومية التي تجعله ينساق إلى الدفاع عن لغتنا من حروفها وتعبيراتها ذاهبا إلى أنها أعظم اللغات من حيث شاعريتها. والكتاب الثاني (الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر)وفيه يرى العقاد متأثرًا بالشعر القديم، وبملاحظته للعناصر التقليدية القديمة، من الصورة إلى اللغة إلى المعنى وجد الكثير من الشعر القديم يتسرب إلى شعر العقاد.
والاهتمام الثالث تترجمه هذه الفصول الممتعة من كتاب (بين القديم والجديد) للدكتور إبراهيم عبدالرحمن وفيها سجل ملاحظات على أدب ونقد العقاد ومنها أن آراء العقاد النقدية نبعت من غاية هي تحطيم مكانة شوقي وغيره من الشعراء لإزاحتهم حتى يفسح له ولزميليه مكانا مرموقا، وإن المرحلة التي كان يعيشها العقاد كانت ذات طابع إحيائي تتجه إلى التراث الإسلامي والأدبي القديم يأخذون منه وينسجون على منواله وقد تأثر شعر العقاد بهذا الجانب التوفيقي واحتذى في نزعته المنطقية التقريرية آراء ابن قتيبة وابن جعفر وابن رشيق وحازم القرطاجني ونقل مفهومه لوحدة بناء القصيدة من الحاتمي وابن طباطبا، وأن عيوب التفكك والإحالة والسرقة التي أخذها العقاد على شوقي وقع هو فيها.
والاهتمام الرابع يترجمه تحليل رواية (سارة) للعقاد في كتاب (تطور الرواية العربية الحديثة) للدكتور عبدالمحسن طه بدر حيث يشير إلى ظاهرتين تميزان العقاد – الأولى تتصل بشخصيته عندما تعرض كغيره للقلق والألم والشك وكانت وسيلته للخروج من هذه الأزمة تتمثل في اعتزازه الشديد بذاته واستعلائه على الآخرين. والثانية تتصل بتفكيره فتظهر في نزعته المنطقية الحادة فهو حين يريد إخضاع ظروف الحياة لإرادته يحاول إخضاعها لتفكيره. وفي (سارة) نجد أنفسنا أمام نزعة العقاد العقلية، وقدرته على التحليل والتعليل التي ينجم عنها التنظيم حتى للحظات التوتر التي تتشابك فيها العواطف في العمل الروائي ولذلك تاهت سارة!

أنه (مفكر تلفيقي لعديد من الفلاسفة الألمان) وهذا التوصيف مهين لفكر العقاد، فالتلفيقية في المعجم الفلسفي نزعة بعيدة عن الروح النقدية، وترمي إلى جمع مصطنع بين أشتات غير متلائمة

والاهتمام الخامس تترجمه فصول من كتب الدكتور أنس داود أولها كتاب (الأسطورة في الشعر العربي الحديث) وفيه يقارن بين رأي العقاد في أن حياة الشاعر تعرف من شعره ورأى (إليوت) الذي لا يرى صلة بين حياة الشاعر وشعره. ثم ينعي على العقاد توقفه عند حدود المدرسة الرومانتيكية الأوربية، وكتاب (رواد التجديد في الشعر الحديث) وفيه يجرد العقاد من زعامته لمدرسة الديوان، وكتاب (الرؤية الداخلية للنص الشعري) وفيه يرى العقاد يخالف القاعدة في الشعر حيث يبدأ حكيما وينتهي عاطفيا.
والاهتمام السادس رسالة لدار العلوم عن مصطفى صادق الرافعي قدمها الشقيق العراقي الدكتور مصطفى البدري وفيها ذكر العقاد بما لا يليق، والباحث معذور لطبيعة موضوعه عن الرافعي، ولأن موجهه هو الدكتور عمر الدسوقي الذي أقسم بأيمان مغلظة ليسخرن علمه للهجوم على العقاد؟

تأملات لويس عوض

وتبقى من هذه الاهتمامات المنشورة بالصحف والمجلات تأملات الدكتور لويس عوض في فكر العقاد.
فالعقاد الذي شغل حياتنا لأكثر من ثلاثة أرباع قرن، في حياته أو بعد مماته، تقدمه لنا تأملات الدكتور لويس عوض في مجلة المصور فلا نعرفه! وكيف نعرفه وقد انتهى في عام ١٩٣٧ وليس كما هو معروف في عام ١٩٦٤، وقد بدا مناقضا لفكرنا الديني التقليدي، وأصبح متتلمذا على فلاسفة أوربا ومفكريها! باختصار العقاد في هذه التأملات، شخص آخر غير الذي نعرفه، هو نتاج للثقافة الغربية بخيرها وشرها، وليس من نتاج الثقافة العربية.
ونتأمل معا تأملات د.لويس في أدب العقاد مبتدئين باختبار ذلك المنهج الذي سلكه في التعامل مع سطور للعقاد عدد كلماتها ٣٥ كلمة، في مقدمة لا تزيد على الصفحة ونصف الصفحة لكتابه (الفصول) الذي بدأ كتابة فصوله عام ١٩١٣ ليصبح ترتيبه الخامس بين ١٠٥ كتب هذه الكلمات تقول: (في سبيل الحق والجمال والقوة أحيا. وفي سبيل الحق والجمال والقوة أكتب، وعلى مذبح الحق والجمال والقوة أضع هذه الأفكار المخضلة بدم فكر ومهجة قلب قربانا إلى تلك الأقانيم العلوية وهدية في السحاب إلى العباب) فنجده أقرب إلى استخدام المنهج الاستدلالي.. حيث انتقل من قضايا منظور إليها في ذاتها، إلى قضايا ناتجة عنها، وفقا لقواعد منطقية. وهذا أمر طيب.
ولكن أن يختار هذه الكلمات من مقدمة لكتاب بدأ مؤلفه كتابة فصوله عام ١٩١٣ فهذا هو وجه الغرابة.
إن أكثر من خمسين عاما بين البدء في تأليف الكتاب ووفاة صاحبه كافية لإضافة جديدة إلى فكر المؤلف. ومن هنا لا يكون الحكم مطمئنًا بالنسبة للمادة موضع الدراسة. يتصل بهذا المنهج الذي اتبعه الدكتور لويس، حرصه الواضح على حشد خطوات إثبات ما يريد بموكب من النظريات والمصطلحات والمفاهيم التي من المؤكد أنها تغزو عقل قارئ الصحيفة السيارة، فيستسلم، والأكثر يصبح عاجزًا عن تبين مواطن القوة والضعف. والصواب والخطأ.

ماذا كان العقاد؟

في تناول الدكتور لويس لأدب العقاد وفكره بهذا المنهج، المرء يدهش لجرأته في تقديم رؤية مبنية على استخلاص الكل من الجزء! بعد ذلك تطل من بين صفحات التأملات ملاحظات هامشية ومنها مثلا ملاحظة حول هذا العنوان: (تأملات في أدب العقاد) وكيف أن القارئ لما تتضمنه الحلقات يدخل أدب العقاد من باب فكره لما يطالعه في هذه التأملات من جوانب فلسفية واجتماعية وسياسية ثم أدبية في أحوال قليلة. ونطوف مع التأملات ونتوقف عند قول الدكتور لويس: (وفي الأربعينيات تابعت بعض أدب العقاد الديني. ولكن العقاد الذي أعرفه وتأثرت به انتهى نحو عام ١٩٣٧).
بمراجعة إنتاج العقاد في هذا التاريخ نجده يصدر الكتاب السابع عشر في سلسلة مؤلفاته التي تجاوزت مئة كتاب إلى جانب أحاديثه الصحفية والإذاعية وندواته فكيف انتهى؟
ويتساءل الدكتور لويس: ماذا كان العقاد؟
ويجيب إنه لم يكن فيلسوفًا بل متفلسفا، وأنه كان متشربا بفلسفة (الترانسندانتال) فقال مسجلا أن هذه الفلسفة بلغت قمتها عند كارلايل، مع أن الثابت أن هذه الفلسفة بلغت قمتها عند كانط وهيجل وهما من الفلاسفة الكبار، وليس عند كارلايل المؤرخ والأديب).
ثم يقول (أعود إلى الاسم الأجنبي للفلسفة الترانسدية وهي حرفيا تعني التجاوزية ولكن عثمان أمين رحمه الله ابتكر لها كلمة البرانية في مقابلة الجوانية) والسؤال الآن: لماذا كثرة الترجمات لمصطلح اتفق الغالبية على أن ترجمته هي كلمة (مفارق) كما يقول مؤرخ الفلسفة الدكتور يوسف كرم في كتابه (تاريخ الفلسفة الحديثة) كذلك يعلن الدكتور لويس استنادًا إلى الدكتور عثمان أمين أن العقاد كان (برانيا) وبالرجوع إلى كتاب (الجوانية أصول عقيدة وفلسفة ثورة) نجد الدكتور عثمان أمين يعتبره جوانيا، بل (خير معبر عن النظر الجواني في أدبه وفلسفته).
ويقول الدكتور لويس عن العقاد بأنه (مفكر تلفيقي لعديد من الفلاسفة الألمان) وهذا التوصيف مهين لفكر العقاد، فالتلفيقية في المعجم الفلسفي نزعة بعيدة عن الروح النقدية، وترمي إلى جمع مصطنع بين أشتات غير متلائمة، فهل كان العقاد في فكره بهذه الصورة؟
وحين يؤصل الدكتور لويس لدلالة هذه الكلمات (الحق والجمال والقوة) عند العقاد يجعل لها بديلا يبعدها عن التفكير الإسلامي ويقربها من الفكر الحديث وثالوث المسيحية، مع أنها كلمات متداولة في التفكير الإسلامي فالحق صفة من صفات الله حيث نردد: يقول الحق سبحانه وتعالى، وكذلك الجمال (الله جميل يحب الجمال)، والقوة مشتقة من اسم من أسماء الله الحسنى (القوي).
والدكتور لويس يعتبر العقاد ضمن المدرسة المثالية ثم يقول: (إذا أردت أن تعرف الفرق بين الله في الفلسفة المثالية والله في الفكر الديني لم تجد اختلافا حقيقيا بينهما، إلا أن الله عند الفلاسفة المثاليين غير مشخص) ومعنى هذا أن الله مشخص في الفكر الديني. يقول هذا عن العقاد الذي نجده يردد في كتابه (الله) قوله تعالى (ليس كمثله شيء) عندما يورد صفات الله.
إضافة إلى كل ذلك، فهناك الكثير من الاهتمامات التي ترجمتها الرسائل الجامعية والدراسات والمحاضرات وكلها – سلبا وإيجابا – أعمال مشكورة تؤكد خلود فكر العقاد.

قبل سبعة وستين عاماً

عن رسالة من مواطن عراقي في سوق الصدرية ببغداد الى العقاد بالقاهرة

مهدي شاكر العبيدي

كتاب (مطالعات في الكتب والحياة) من الكتب التي يعتد بها من جهة اشتماله على مقالات تناول فيها العقاد موضوعات شتى، ينتهي القارئ منها، وقد ألم بطائفة من النزعات والخواطر بصدد الشعر والفلسفة والتاريخ والفن والنقد مودعة في قالب كتابي محكم بألفاظه المطلوبة في سياق تعبيره دون غيرها من مكونات اللغة، مبقيا فيها في الوقت عينه على عنصر الذاتية دون ان يباعد عنه الى المبحث الاكاديمي وما يتسم به من جفاف ورتابة وإمعان في التفاصيل، ولا يكون ذلك بغير استناد الى مراجع وامهات من موروثات الثقافة قد يستدل منها على افتقاد الكاتب لثقته بما يقول قبل ان يؤمنه الاخرون على توخيه الضبط والتدقيق.

من محتويات هذا السفر القيم الصادر عام ١٩٢٤ بطبعته الاولى مقالة بعنوان (القديم والجديد) لنا ان نعدها من غرر مقالاته ، لاحتوائها على افكار ونظرات بخصوص الاداب العربية القديمة وصلتها بحياة العرب الحاضرة، ما يضعه في صف اهل الجسارة والاقدام، وفي مقدمة دعاة التجديد والابتكار ، مردنا في ذلك الى ثقة راسخة بما يدين ويعتقد، غير ملتفت الى الرأي الشائع الذي يكرس العصمة في القدامى ويستبعد وقوعهم في الخطأ والمزلة بل رافضا فيه ايضا جملة من الاقوال المتداولة بخصوص جدوى بعض الكتب القديمة في تدريب الملكة ورياضة السليقة واغناء عقل المرء بغاية ما يتيسر من المعارف والحقائق والمحصلات الذهنية ليذلل بها كل ما يعترضه من صعوبات بمجرد اعتزامه الانخراط في عالم الكتابة والكاتبين.

والذي استحث العقاد على تحبير تلك المقالة وأوحى لخاطره بالنظر المستنير والقصد المرتبط بمجريات العصر ومستجداته، في غير جهد ولا تنكر لمآتي السلف واثارهم الابداعية، هو رسالة وافته من بغداد في بداية عام ١٩٢٤ ، كتبها مواطن عراقي قد يكون من الباعة او التجار في سوق الصدرية او ان دار سكناه على مقربة من ذلك السوق، فصيره عنونا له، واسم هذا المستفسر المطلع على شؤون الادب والتواق الى الاستزادة من الاراء الكامنة وراء ما يشتجر بين المتمرسين في الكتابة من خلافات، وما يستمسكون به من ذرائع وحجج لتعزيزها، هو محمد رؤوف الكراز، وقد يكون بعد هذه السنين المنطوية في عالم البقاء الحقيقي.

ونرى من المسوغ الوقوف على تقديم العقاد لخطاب ذلك السائل واستقباله له بالشكر، واطلاعنا، على نبذة منه:

وجاءني في الخطاب الاتي من حضرة صاحب الامضاء، أنشر هنا ما يعنيني في هذا المقال، واستأذن صاحبه الاديب في حذف ما خصني به من ثنائه الجميل، قال: كتب سلامة موسى ما كتب عن السيد مصطفى صادق الرافعي في الهلال، وعلى اثر ما كتبه الاستاذان وسبرنا غور ما ارادا من تصديها للبحث والمناقشة، وقد جاءت حجج الرافعي آية في السلاسة والابداع، فهو يدخل في باب النصح والملاينة لا من جهة العبوسة والمخاشنة فكأنه إنما يريد الهداية ولا يريد التشفي، والعاجز يريد استفتاءكم في ذلك الموضوع خدمة للحقيقة.

بغداد –سوق الصدرية –محمد رؤوف الكراز.

وتتضمن مقالة العقاد في تبصير كاتب الرسالة بعناصر الابداع الادبي والشرائط التي يلزم توفرها في الاديب ليستوي على الجادة الصحيحة، والفروق الملحوظة بين الادب المعاصر والادب القديم، من ناحية التوجهات والاساليب، وما اذا كان بالسوع اقتصار النابتة الجديدة على قراءة نتاجات المحدثين دون اشتغالهم بها ورأت القدامى ليقوى إمكانهم وتستقيم لغتهم، اقول تتضمن تلك المقالة النفيسة من ضروب الراي ما يباين فيه العقاد أقرانه من الرواد الاوائل من كتاب النهضة الحديثة الذين بذلوا ما في وسعهم لتنقية الكتابة العربية من المحسنات والزخارف البيانية، ولم يحتذوا في ذلك عدا اسلوب ابن خلدون في مجافاة التصنع والكلف بمفردات معينة، وجروا على منواله في الترسل والانطلاق ولم يكونوا في ذلك حتى محاكين له ومقلدين، والا لما تعددت القوالب ووجوه البيان يومها تمثيلا لما في شخصية الكاتب الواحد منهم من عناصر وخصائص.

إننا في عصر لم تسعد اللغة العربية بمصر أسعد منه، في دولة من دولها الغابرة، وان عليهم ان يفيقوا من ذلك الجنون بالقديم الذي يتحسرون عليه، فيعلموا ان عصرنا هذا هو اقدم العصور واحقها بالتوقير والتبجيل

هؤلاء الرواد طالما نصحوا لمريديهم وابنائهم بالمداومة على مطالعة اسفار ومصنفات معينة ما أسلفه الجاحظ وأبو الفرج وقدامة وابوهلال العسكري ليفيدوا ما فيها من البيان المتين الاسر، على سبيل الاعتبار والقدوة، بينما يرسل العقاد صيحته:

"إننا في عصر لم تسعد اللغة العربية بمصر أسعد منه، في دولة من دولها الغابرة، وان عليهم ان يفيقوا من ذلك الجنون بالقديم الذي يتحسرون عليه، فيعلموا ان عصرنا هذا هو اقدم العصور واحقها بالتوقير والتبجيل لأنه وعى من الازمنة الماضية، وبلغت اممه من تجارب الحياة ما لم تبلغه الامم الخالية".

وقد يكون في هذا الرد لما لهج به القدامى انفسهم، من ناحية كونهم يعدون حقبتهم افضل في التفتح والازدهار والنشاط العقلي من حقبات سابقة عليهم فنهي الاديب المتأخر لمن يتلوه من نابتة الجيل عن التقليد المحاكاة وتوصيته لهم بأن لاينظروا عند التمييز والترجيح وتحليل الاساليب والنصوص، الى الازمنة والعصور التي ظهرت إبانها ، فلا دخل لها في مداها من الجودة والقوة، وجدارتها بالقبول وإقناع متداوليها بسلامة ما فيها من مد ليل وافكار ، كل هذا ما حفلت به كتب النقد الادبي المعروفة.

فعنده ان "شرط الاديب ان يكون مطبوعا على القول، أي غير مقلد في لفظه ومعناه، وان يكون صاحب هبة في نفسه وعقله لا في لسانه فحسب، فهو مطالب بشيء جديد من عنده ينسب اليه وتتعلق به سمته".. وكذا ليصح في ملته تنزيه بعض كتابات القدامى من العيوب، والهنات ويشوم الرصانة، كل الرصانة في ما ينسجه بعض المحدثين ممن يعون حقيقة عصرهم ولاينظرون إلى الانماط المألوفة في أدهار سالفة مشيراً في ذلك الى ان بعض التكرار في ديباجة الجاحظ من الصنف المرذول وغير الملائم والمنسجم مع موضوعه، واما بيان الجرجاني –الذي لا ندري أي جرجاني يقصد، اصاحب الوساطة ام تلميذه مؤلف اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز– فهو معقد متقبض في كثيره".

لكن حسبه ان يتطلب الاديب ويلزمه بمراعاة "الصحة في القواعد الاساسية التي يشترك فيها جميع الكتاب في جميع العصور دون ان يكون لأختلاف الزمن شأن في قياسه.

ومن فحاوى هذه المقالة رأي يحتل تفسيرين اذا جاز التعبير، لك ان تسلكه في خانة الزراية بالعربية واستهوان شأن كتابها القدامى، والايماء الى ضعف قابليتهم على تناول الحقائق والموضوعات التي تحتاج الى الاسهاب والافاضة والتقسيم والترتيب، كما هو الحال في شؤون البحث والاستقرار، وذلك لعدم مطاوعة لغتهم لهم، لأن ما ورثوه عن الجاهلية لايعدو الخطب المصبوبة في عبارات وجيزة لا ينفذون منها الى التسلسل والاطناب وابتغاء المعاني المطولة، ولك ان تسلكه ايضاً في تكريس جميع قوالبها وانساقها بين "لغة الكلام والخطاب منذ نشأت ولم تكن لغة كتابه في عصر من العصور قبل هذا العصر الذي نحن فيه".

وتحسب هذه المزية او السمة من عناصر الفضل والرجحان والامتياز على اللغات الاخرى التي ألقت التناقض والبون بين مفرداتها في الكلام والخطاب، او التحاور والتأليف.

ولا يعني هذا بحالا لبتة انه ينقص من قدرة الاعاريب الغابرين على التصنيف والتأليف بقدر ما يبين عن مدى أثر ما توارثوه من خطب الجاهليين والاسلاميين على طرائقهم عبر العصور العباسية وما بعدها الى حد، في احتوائها على لقيات وشارات معينة، لاسيما في استهلالها بصورة خاصة، من قبيل: إعلم علمت الخير، وبعد ايها القارئ، وهي لا تعدو كونها من بقايا الخطابة المرتجلة.

ترى ايكون ذلك المواطن العراقي الذي استعان بواحد من ارباب الصناعة على حذقها واتقانها ، قد وعى دالته على عباس محمود العقاد، في استنفار طاقته ونزوعه للزهو والاعتداد ، بما أوفت عليه العربية في اساليب المحدثين من رصانة وتوهج وكفاية لتناول دقائق الموضوعات المستوحاة من متطلبات الزمن الذي نعيشه وما يقتضيه ذلك من استطراد وتفصيل، أو اقتضاب وتركيز، والعقاد نفسه في عد شخصه واحدا من ذوي الفضل و الدراية والسابقة المحمودة لي هذا الغمار؟

في الوساطة ما بين العقاد وخصومه

بلند الحيدري

قد تذهب الظنة الحسنة ببعضها الى ان ايمان عباس وحرية الفرد التي من ابرز مقوماتها الجهر بالرأي دون موارية او مداجاة والترفع عن "الذل والنفاق والغباء" قد اورده الى مواقف كان في غنى عنها، وعقد علاقاته بكبار جيله، "لان استكمال الحياة بحرية الفكر واجب لا شك فيه ولا حاجة به للبراهين، ولانه لن يكون للامة الناهضة ما يحميها من خطر مزيفي القيم والمتاجرين بالسياسة، الا الفكر الذي يدحض دعاوى هؤلاء الناس ويفضح نياتهم، وقد تذهب الظنة بغير هؤلاء، الى ان عباس محمود العقاد ما سلم من عقد نفسية، ومنها انه لم ينل شهادة عليا كالكثيرين من دكاترة الادب في زمانه، وانه اذ كان يستعرض في العديد من مؤلفاته تاريخ العديدين من عظماء أمته، كان يسقط عليهم شخصيته ويخرج طموحه بطموحهم فيكبر من ظله على الارض، ويتعالى على من حوله، ويوسع من ثقافته الموسوعية، لينال بهم منهم ولنا ان ندركه في شيء من الحقيقة في كلتا الظنتين، وفي شيء آخر، ألب عليه خصومه واثار حفيظة الكثيرين من معاصريه ضده، ومن ذلك اراؤه في السياسة والقومية وجنوحه الدائم الى تبني مواقف اليمين العالمي، بحجة ما اتاحه الغرب للمفكر من حرية كانت الاساس الذي قامت عليه نهضة الغرب الحضارية والتي لابديل لنا عنها ، ومن ذلك ايضا ضعف حسه القومي العروبي، الذي مد بخصوماته الى خارج مصر والى العديد من البلدان العربية، فيقول عنه الناقد والكاتب اللبناني مارون عبود "١٨٨٥-١٩٦٢" ساخرا ومتهكما: "اما العقاد، فمن شيعة الراي الاول، حاول ان يصور مصر الجديدة فلم يصور شيئاً، وكيف يصور من لاقبل له بالالوان التي تخلق الشعر القومي، وما برهانه على انه شاعر مصري، الا اغفاله كلمة عرب في دواوينه ، أجل ذكرها مرة واحدة واعتذر يوم رثى حافظ ابراهيم –وحي الاربعين ص ١٧٢ ، كانما العروبة والادب المصري ضدان لايجتمعان، ومما لاشك فيه ان اسلوب العقاد النقدي ضد مناوئيه و المتميز بالعنف والقسوة دفع بالاخرين الى ان يكيلوا له الصاع صاعين، وبلغة ربما كانت اشد قسوة، وقد تتبذأ وتتبذل في بعض الاحيان، وحسبنا ان نذكر من بين اعتى خصومه، مصطفى صادق الرافعي "١٨٨٠-١٩٣٧". وكتابه "على السفود" الذي اصدره غفلا من توقيعه، وفي ذلك ما نحتاج به ضد الرافعي، ويبقى صحيحاً ما يقول به المرحوم محمد مندور عندما يصف العقاد بأنه واحد من "اولئك النفر القليل الذي يصح ان يقال فيهم، مثلما قيل في المتنبي: من انه ملأ الدنيا وشغل الناس واثار الصداقات والعداوات، وخاض المعارك في شجاعة وصلابة، وان يكن عنف خصومه، قد ارث له من العداوات ما اضعف من قوة تأثيره في عصره وضيق من رفعة ذلك التأثير، وبخاصة في خصوماته التي لا تقوم حول قضايا ادبية او ثقافية، بل حول آراء ومذاهب سياسية".

واذا كان الدكتور طه حسين قد عالج في نقده الادبي، النصوص بمعزل عن شخصية كاتبه، واذا كان غير طه حسين قد اعتمدوا الاصول النقدية المتوارثة في الايقاع واللغة ، او اعتمدوا النقد العلمي، فأن للعقاد ما كان يفرده في اسلوبه النقدي الذي يقوم على دراسة النص من خلال كاتبه، وان لاي ادب جدير بالاهتمام ما لم يكن لشخصية كاتبه حضور فيه، بل وحضور مكثف، فأن افتقدناها، فلن يكون له ما يميزه، وانه يلوك كلام الذين سبقوه ، واذا كان المقاس في هذا القول صحيحاً، وربما يكون ضروريا، فان العقاد لم يكن دائما على كثير حق في استخدامه، خاصة عندما يتعرض به لنقد شعر احمد شوقي "١٨٦٨- ١٩٣٢" وبشيء كثير من التحامل كقوله: "لم يكن لشوقي كما سبق ان قلنا، شعر يدل على مزية نفسية، او صفات شخصية، لايجاري فيها الاخرين، او لا تتكرر في النسخ الادمية الاخرى تكرر المنقولات والمحكيات والمصنوعات وهذا نقص ظهر في ابواب شعره كلها. فلا فرق بين حديثه وقديمه ، ولا بين الموضوعات العامة والخاصة، لو كانت مدائح او مراثي اشخاص متعددين".

والعقاد الذي يحسن الصنع في سن قلمه، ويشحذ ذهنه بالامثلة التي ينال بها من شعر شوقي، بصفته شعرا لا شخصية فيه، وشعر صانع حاذق لا شعر شاعر مطبوع، يتسمح مع غير شوقي، ممن يكن لهم الود، وقد يتغاضى عن التساؤل عما في شعرهم من شخصية تدل عليهم، وتمايزهم بشيء من خصوصياتهم، وكان في مقدمة هؤلاء الشعراء حافظ ابراهيم ١٨٧٢- ١٩٣٢ ، الذي صرف العقاد بعض همه في الادلال على حذاقته اللغوية، والادلال على اهميته كشاعر اجتماعي اجاد كل الاجادة في التعبير عن المشاعر الوطنية واشكالات الواقع الاجتماعي المصري انذاك، متجاوزاً مقاساته "في الخصوص والامتياز والاستقلال بشعور هو شعوره وحده وليس بشعور الآخرين" ونراه عند ذاك قريبا من اصول النقد المتوارث، اذا ما مس احدهم بما يؤخذ عليه فان مبضعه لن يغور عميقاً حتى العظم كما يفعل مع احمد شوقي، فاسماعيل صبري ١٨٥٥ -١٩٢٣، شاعر متميز وان "شعره لطيف لاتعمل فيه، ولكنه كذلك لا قوة فيه ولا حرارة، ونقده بصير عارف بالزيف كله، ولكنه غير بصير ولا عارف بالصحة كلها، واثره في تهذيب الاطواق ونفي ما كان فاشياً من زيف التشبيه وفساد الخيال، اثر واضح لا ريب فيه، ولكنه بعد هذا اثر محدود بذلك النطاق المرسوم" ، واننا لو جمعنا

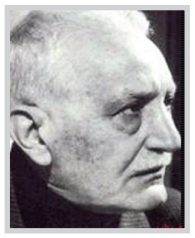

العقاد الذي يحسن الصنع في سن قلمه، ويشحذ ذهنه بالامثلة التي ينال بها من شعر شوقي، بصفته شعرا لا شخصية فيه، وشعر صانع حاذق لا شعر شاعر مطبوع، يتسمح مع غير شوقي، ممن يكن لهم الود

وطرحنا ووازنا ما بين المعادلات السلبة والموجبة، لوقعنا الى انه شاعر متفاضل على غيره بلطافة شعره، وبعده عن الزيف وباثر في تهذيب الذوق الشعري ، وهو قول لم يكن لاحمد شوقي، برغم ضخامته، شيء منه، فقد اعد عدته كاملة في النقد المقارن والنقد النفسي والنقد اللغوي والنقد الانطباعي والنقد الموضوعي ، ليسقطه بها دون الشعراء العرب المعروفين، فاين شوقي من المتنبي وصدق مشاعره وحكم هذا المعتد بنفسه العميقة واين هو من هذا البصير بأمور الحياة والجمال فوجه المتنبي كما يقول "يطلع عليك من وراء كل بيت من هذه الابيات. بل في كل كلمة من هذه الكلمات، وفي كل معنى من معانيهن مصداق لحادث من حوادث حياته، أوحوادث عصره، وتمثيل لخلق من اخلاقه، وهم من هموم نفسه، اما شوقي فليس له في نظره أي شيء من ذلك، انه شاعر يعيش على ما قال به الاخرون، وينظر الى العوالم المحيطة به من خلال عيونهم "فالرياض عنده والخمائل والجداول والانهار والسماوات، هي بعينها رياض زوار المواسم والاحاد وخمائلهم وجداولهم وانهارهم وسماواتهم، لاتزيد ولا تنقص ، وان بيتا واحدا كبيت البحتري الذي قاله في الربيع:

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً
من الحسن حتى كاد
ان يتكلما

ليساوي كل ما نظم شوقي في ربيعياته وريحانياته ومناظر النيل أو مناظر البحور، لان الطلاقة والاختيال والبشاشة والحسن الذي يهم هي علامات الربيع المبثوث في النفوس"..

وهكذا هو العقاد ساعة يورد من الحجج ما تستقيم بها سلامة رأيه في جوهره ومنطوقه، فكل منا معه في الذي وصف به المتنبي، ولكن كيف لنا ان نكون في التعميم الذي خرج به حكما على شوقي، بحيث يكون لبيت البحتري الذي حفل بأمثاله دواوين المئات من الشعراء العرب، ان يساوي كل ما نظم احمد شوقي، وماذا في هذا البيت اكثر من تبادل مألوف لوظائف الجسد وقد كان لشوقي ايضاً متسع فيه لا يقل اهمية من بيت البحتري:

لقد انلتك اذنا غير واعية
ورب مستمع والقلب في صمم

وما الذي في بيت البحتري ما يتفاضل به على:

مرمر تسبح النواظر فيه
فيطول المدى عليها فترسي

والعقاد الذي يثمن بتقدير واعجاب شاعرية محمود سامي البارودي ١٨٤٠ -١٩٠٤ وحسن السليقة، عنده ووضوح الشخصية المعبرة عن نوازعها الداخلية، وقدرته البارعة في التقليد، لايرى في شعر شوقي ما يماثله فيها، وما يمكن ان يكون موضع تثمينه ايضا، ما دام الاثنان ينهلان من ذات المنابع، في شعر شوقي واسلوبه وحساسية موسيقاه، ما يقوم له منها برهان جدير بالتنويه به، بل ان العقاد حتى لم ير في مسرح احمد شوقي، ونقلته المهمة في تاريخ الادب العربي، شيئا يستوجب الاشارة اليهن بدعوى ان شخصيات مسرحه شخصيات مسطحة، ولا شخصية لها، وبنزوع تعميمي جائر، فتح عين الرضا على من راضاه، واغلقها دون محاسن من اعلن عليه عداوته "ولايجد العقل ضيراً في ان يكشف في مقدمة هجومه الغني على شوقي، عن البواعث النفسية التي اضرمت في نفسه، كره هذا الشاعر، فهو يتهمه بالزلفى لرجال السلطان، وباساءة استخدام ثورته في اصطناع المهرجين والمطبلين، والنيل من خصومه، ومنافسيه سرا وعلانية ، بما في ذلك زملاء مدرسته الشعرية، من امثال حافظ ابراهيم..كل ذلك فضلا عن ان العقاد كان مرتبطاً في صدر حياته بمعسكر الشعب الممثل عندئذ في الوفد، اقوى تمثيل، على حين كان شوقي، لصيقاً بالسراي، ومن يلوذ بها او يناصرها –محمد مندور".

ولكن ومهما كان لنا من مآخذ على اسلوب العقاد النقدي، ومطاعن في الذي اراد ان يكون نقداً نزيهاً في تقييم الاعمال الشعرية يدلنا على مسارب تعمق وعينا بشخصية الشاعر في شعره من خلال ظروفه النفسية والاجتماعية، وعلى مثل مايذهب اليه الكثيرون من النقدة الاوروبيين ، لا على اساس اخذ الشعر بجريرة انتساب شاعره لهذه الفئة من الناس أو تلك الفئة من الناس، ولا على اساس من دوافع شخصية وترسبات احقاد وولاءات، اقول: ومهما كان لنا من مآخذ على هذا الاسلوب النقدي، فقد استقامت للعقاد رؤية نقدية ذات اطراف مترابطة وواضحة المعالم وان ما شت به الى سوء التطبيق، لاينال من جوهرها، في التأكيد على ضرورة البحث عن الحداثة الادبية التي لابد وان تشكل اضافة مهمة الى ما هو متوارث، وباثر من حضور العصر في القصيدة الجديدة، وباثر من وجود خصوصية فردية الشاعر الشخصية فيها، وعبر مسعاه لان يكون للقصيدة الجديدة ما يخرج بها من ربقة شعر البيت الذي قامت عليه القصيدة القديمة، والى ان يكون للقصيدة ما يؤكدها في وحدتها العضوية، وهي المداخل الرئيسة التي نهضت بمنهجه النقدي، الذي سرعان ما تآلف معه فيه، ابراهيم عبد القادر المازني ١٨٨٩ -١٩٤٩ وعبد الرحمن شكري ١٨٨٦ -١٩٥٨ واللذان شدا من ازره في مدرسة "الديوان" حيث تكفلوا بالوقوف ضد الشعر التقليدي المتوارث والتصدي لشعرائه ذوي السحن المتشابهة، واذا كنا مع محمد مندور في الاشارة الى دور خصوم العقاد في تقليص اثره في عصره، وتقليص اثر منهجه النقدي، فلنا ان نضيف الى ذلك بان تجربة العقاد الشعرية وزميليه الباهتة، وهزالة النماذج التي جاءوا بها، وانقطاع المازني عن كتابة الشعر، وانصرافه الى كتابة القصة والترجمة، قد أتت على الكثير من اهمية منهجهم النقدي، لان من كان معهم، ومن سعى لأن يأخذ نفسه بمقولاتهم ، لم يجد امامه من النماذج الشعرية ما يقوم حجة في دعواهم الى الجديد، الذي عليه يتفاضل على القديم، بل ان الكثير من شعر العقاد نفسه والذي كان يعلن به عن رؤيته للقصيدة الجديدة، ما حمل من الشعر شيئا يعتد به، ما دفع بمناوئيه الى استخدامه ضده، وضد نقده وافكاره، وحسبنا من ذلك ما كتبه مارون عبود، برغم حماسته الشديدة لكل ماهو جديد، وبرغم انتصاره لجيل بدر شاكر السياب، فرداً فرداً وتعزيز مراميهم في الحداثة، اذ لم ير في شعر "العقاد الذي اراد ان يكون سباقا الى هذه الشاعرية، فطار اليها ولكن بجناح الدجاج، فوقع على وجهات الدكاكين وكوا الثياب، فكان اشبه بذاك الذي جاء باعجوبة الابر، فاجازه الخليفة بمئتين: مئة دينار جزاء حذقه ومرانه، ومئة سوط، قصاصا له على وقت ضيعه... اما نحن فحائرون بما نكافئ الاستاذ على هذا العناء الشديد".

مجلة المجلة نيسان ١٩٨٨

من الكتب المضافة الى تراث العقاد الذي كان بالاصل مجموعة من المقالات المنشورة في غير مجلة كانت تصدر في مصر قبل سنوات بعيدة، ومنها مجلة الرسالة كتاب عنوانه ردود وحدود، يشتمل على مساجلات شتى بصدد شؤون وجوانب معرفية متباينة من علوم اللغة والبيان والدين والفلسفة والتصوف والكلام والسياسة. من بين محتويات هذا السفر المطبوع بعد رحيله عن هذا الوجود مقالة ضافية عنوانها (ردود وحدود) يبدو انها راقت لناشر الكتاب او القائم بجمع نظائرها واشباهها وانتزاعها من مواضعها في اعداد مجلة الرسالة ومن ثم ترتيبها لتستحيل كتابا تتداوله الاجيال الادبية التي تعايش الحقبة التي ازدهرت ابانها الحياة الثقافية وتميزت من غيرها بموسوعية الكاتبين.

بين العقاد ومصطفى جواد

وتعدد مصادر ثقافتهم فضلا عن سلامة ادائهم لما يعن لهم من خوالج وآراء وانظار عقلية شتى دون ان يشوبه احيانا خصوصا في معارض الرد والنقاش، شيء من الحدة والمخاشنة والغلظة قد يوفون بها جميعا على ضرب من الاساءة البالغة والجريح القاسي.

نقول اعجب منسقو كتاب العقاد هذا بمقالته تلك والتي يجوز الفصل بين اجزائها الثلاثة، والنظر لكل جزء منها على انه مقالة منفردة مستقلة بموضوعها ، ففي الجزء الاول ينبري للرد على المرحوم احمد امين بصدد ما نشره في عدد سابق من الرسالة عن حقوق الافراد والجماعات وما يلزم البشر ان يضطلعوا به من الاعباء ويؤدوه من الواجبات.

وفي الثاني يعرض لما خاض فيه الشاعر الكاتب طاهر ابو فاشا بشأن قضايا تتصل بعلم الاجتماع وفلسفة الاداب والفنون، استتبعه ما سبق للعقاد نفسه ان ساقه في دراسة عن فلسفة المعري وجنوحه الى الاغراب في ما يعالجه من موضوعات.

وفي الثالث يتصدى لافحام الدكتور مصطفى جواد بخصوص مسألة نحوية اصطنعها اللغوي العراقي وذهب فيها مذاهب شتى ووصم العقاد باساءته فهمها على الوجه الصحيح والفاه مسقطا في القول واهماً عبر مقال سابق له ايضاً.

ويبدو ان مقالة مصطفى جواد تحوي قسطا فائقا من الزراية والتسفيه والنبز بالجهل بحيث استثارت غضب قرينه واستحثته على ان يكيل له ما وسعه من فاحش القول والبذاءة وما ظل حتى الان وبعد انقضاء سبعة واربعين عاما حديثا متداولا في المجالس والمنتديات الادبية ومستدلا به كذلك في اكثر من مناسبة ، على انه حتى الحذاق المستوفين غاية المطلوب من العلم والدراية والاجتهاد لا يعدمون ان يعرض لهم الخطل او لا يتأتى لهم الصواب دائماً وعبئاً يخيل انهم ادركوا جانباً بينا تفوقهم ويغيب عنهم كثير من الاشياء.

كما يستدل بهذه الواقعة ومنها على ما تقود له الاثرة ونزوع الانسان للتفرد بالفضل وتطلعه الى ان لا يجد قبالته من يحاكيه او يماثله حتى في مقداره من الدرس والاطلاع ، نعم قد تقود الاثرة حتى الاعلام والعارفين الى ان يفارقوا ما هم عليه من وقار وسمت ويتجردوا ما يزينهم من تماسك ورباطة جأش علما ان اصفياء مصطفى جواد وعشراءه، لايسيغون ما ساد نقده زمنا من خشونة وصرامة وقسوة اثناء المناظرة والمؤاخذة ، ولا ينون في نسبتها الى بعض ما قلد فيه استاذه الكرملي ونهج نهجه وتمادى فيه على طريقته، كما ان ادباء العربية في هذا العصر جميعا يكنون او يعلنون مطلق الاعجاب بمآثر عباس محمود العقاد وافضاله، ويجلون طاقاته ومواهبه، وما خلص منها الى هذا النتاج الثر في شتى ميادين الفكر وانحائه في غاية من الرصانة والتثبت والاستواء دون ان يغضي احد عن ميله للاستظهار والتطاول والعنجهية.

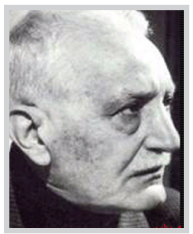

أخلت كتابات العقاد التي لا يحيط بها العد والاحصاء من بعض الاغاليط اليسيرة كأن بجانبه التوفيق في صيغة واحدة من صيغ جمع التكسير على سبيل المثال فاليكه

ولعل القارئ العراقي وجد باساً ومرارة وكدرا ان تحوز مقالة (ردود وحدود) رضا الناشر عنها واحتفاءه بها فيتخذ عنوانها نفسه عنوانا للكتاب بمجموعه، وتسألني ما فحوى هذه القضية النحوية والمجال الذي جال فيه قلما هذين الادبيين الاريبين واستحق كلاهما لوماً دونه ما ينحى به على الاغرار والسذج، فضلا عن المدخولين على علوم العربية وادابها، اصلها في مداخلة مصطفى جواد ان المفاعلة عمل فاعل واحد، والتفاعل عمل فاعلين فلا يقال اذا هذا الشيء لا يتساوى ولا يماثل ولا يتشابه.

وجواب العقاد على هذا الاعتراض بسيط جدا وهو بل يقال ويقال ويقال ولا يقال غيره في هذا المعنى، واليك المثال:

لا يتساوى القمر في ليلتين وقد تساوى الشمس في برجين.
لايتشابه الرجل في عمرين وقد يتشابه العمر في رجلين.
ويقال تقاضيا وتقاضاه وتجاوبا وتجاوب الصدى
الى غيرها من الامثلة والشواهد ومنها المألوف الشائع كثيراً بله القريب حتى للمتعلم المحدود في معارفه ومراجعاته.

ويختم العقاد نقده بعبارات يخجل القرطاس من تسطيرها على صفحاته ويأسى حتى الغلاة الرافضون لتخريجات مصطفى جواد واجتهاداته وآرائه اللغوية على ان يتردى كاتب مثل العقاد الى هذا القعر، ويجترح هذا الاثم ويقع في مثل المنحدر الهابط من الانتقاص والتطاول والامعان في شفاء الغيظ وبرد الغليل.

لكن أخلت كتابات العقاد التي لا يحيط بها العد والاحصاء من بعض الاغاليط اليسيرة كأن بجانبه التوفيق في صيغة واحدة من صيغ جمع التكسير على سبيل المثال فاليكه!

جاء في الصفحة ٢٤٢ من كتابه النفيس (سعد زغلول سيرة وتحية). قوله: انهم غيورون صادقون، أي انه تساهل في جمع فعول بمعنى فاعل جمع مذكر سالماً.

والمعروف في اصطلاح النجاة ان هذا الوزن اذا تضمن معنى فاعل فلا مناص من جمعه على فعل وصواب جمع الاسمين المذكورين فخر، غير.

قال العلامة مصطفى جواد في دراسة له بكتابه في التراث العربي ج٢:

الغيور صفة يستوي فيها المذكر والمؤنث مثل صبور وشكور وفخور فلا تجمع جمع مذكر سالما فالصواب (الغير) على وزن (الكتب). وهذا تخريج ثان نضيفه الى معنى الفاعلية والتنبيه على الغلط في اجراء لفظها على الجمع المذكور ما غلب على اكثر من مقالة لكاتب موسوعي كالعقاد وفي اكثر من كتاب.

كتاب مطارحات ثقافية

عباس محمود العقاد.. ومفهوم الثقافة

جهاد قادر

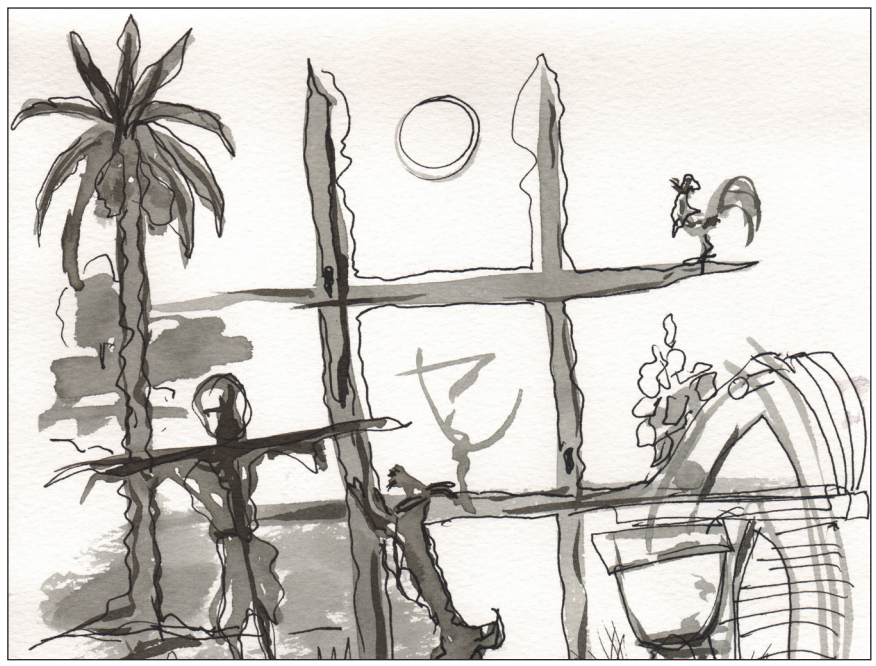

بعد أن إنتصرت الثقافة العامية، أخذ كبار المثقفين أقلامهم ليدافعوا عن اللغة الفصحى وكان العقاد من كبار المدافعين عن القصيدة الفصحى وترك وراءه تراثاً شعرياً يقدر بـ أحدى عشر ديواناً باللغة الفصحى إلا أنه من سوء حظه أن الملحنين والمغنيين إتجهوا إلى الكلمة العامية بعد ثورة ١٩١٩م ولشعراء من أمثال أحمد رامي وبيرم التونسي ومأمون الشناوي وبديع خيري
ويقول يحي حقي:
لم تكن الفصحى قد أفلحت بعد
في أن تسمي لنا أشياء نلسمها
بأيدينا أو أفكاراً
مجردة تطوق بعقولنا ، أو ظلال
عواطف تلم قلوبنا.... وقد دعتنا
اللغة العامية أول الأمر فهممنا
أن نجري إليها ... لأننا كنا نتلهف
أن يكون الأدب صادقاً في التعبير عن المجتمع"( ).
إن هذا الإحساس ليحيى حقي، جاء نتيجة إحساسه بالفجوة العميقة بين كتاب الفصحى والجماهير الشعبية فالفجوة بين المثقفين وبين الجماهير كبيرة، وسرعة الإتصال كانت في بداياتها ولكنها بطيئة لأن الجماهير الشعبية على إمتداد قاعدتها العريضة، لا تجد في شعر عباس محمود العقاد أي تعبير يعبر عن إحتياجاتها اليومية، لذلك فقد كانت تكبر الفجوة في كل يوم بين العقاد والجماهير، وأصبحت هذه الفجوة مزمنة، بمقابل ذلك إزدادت الصلة بين الجماهير وبين كتاب العامية لأنها أسرع من الفصحى في توصيل المعلومات، وإبتعدت الفصحى لدرجة أنها أصبحت حالة مرضية مستعصية على الفهم والإدراك، وتحول عباس محمود العقاد إلى شبه معتزل يعيش في جزيرة شبه معزولة عن الجماهير العريضة، حتى أنه يمتدح الغموض والإبهام في حياة المثقفين والشعراء والحكماء والفلاسفة، وآثر العقاد الغموض على الوضوح وقال في مقدمة كتابه "رجعة أبي العلاء المعري" .
ثلاث علامات من إجتمعن له كان من عظماء الرجال وكان له حقاً في الخلود: فرط الإعجاب من محبية وفرط الحقد من حاسديه، وجو من الأسرار والألغاز يعيش بهن، فيستحار فيه الواصفون فيستكثرون قدرته على الأدمية فيردون تلك القدرة تارة إلى الإعجاز الإلهي وتارة إلى السحر والكهانة( ).
من هنا كان العقاد وأمثاله يشعرون بالتميز عن طبقة الجماهير الواسعة، وكانت الجماهير بنفس الوقت تشعر أن الثقافة والمثقفين يستعلون عليهم. وحتى اليوم ما زال أكثر الناس يتهمون من يخاطبهم بالفصحى، بالسخرية منهم.
لذلك ومن منطلق تعريف العقاد للمعري كان هذا التعريف يشمل كافة قطاعات المثقفين الأقوياء ومن الطامة الكبرى أن يدفع المثقفون الحقيقيون ثمن نجاحهم باهظاً جداً أو أن يكونوا ضحية نجاحهم وبعبارة أخرى: كانت قراءات العقاد الكثيرة قد إبعدته عن الواقع الحقيقي للمجتمع وجعلته مستعصياً على الفهم إلا من طبقة النخبة، وقد يكون من السهل جداً على القارئ العادي أن يقرئ لطة حسين وتوفيق الحكيم في خضم أعتى الازمات وفي القطارات والشوارع العامة والمرافق العامة ولكن ليس من السهل على أي قارئ أن يقرئ للعقاد إلا في ظل ظروف وطقوس غير عادية.
وأحياناً يستعصي على القارئ غير العادي، لقد قال عنه مفكر عربي مثل (زكي نجيب محمود)( ).
"شعر العقاد أقرب شيئ إلى فن العمارة والنحت، فالقصيدة الكبرى من قصائده أقرب إلى هرم الجيزة أو معبد الكرنك أو مسجد السلطان حسن منها إلى الزهرة والعصفور وجدول الماء، القصيدة الكبرى من قصائده أقرب إلى تمثال رمسيس منها إلى الإناء الخزفي الرقيق.."
وكثيراً ما كان يقع العقاد ضحية نقده لغيره من الأدباء جاءته في إحدى الأيام رسالة من أحد قراءه يقول له فيها:
"لماذا كتبت عن ابن الرومي الشاعر
ولم تكتب عن أبي تمام الشاعر"
فأجاب:
"أنا أكتب عن ابن الرومي لأن إبن الرومي شاعر أما أبا تمام فحكيم وليس شاعراً كإبن الرومي، إن الشاعر الحقيقي مثله مثل العدسة يصور كل ما يصادفه، أما الحكيم فإن كل تصاويره إنتقائية، لا تخضع لشروط الشعر بقدر ما تخضع لشروط العقل والمنطق والحكمة".
وإن من يقرئ شعر العقاد يجده كما وجد هو أبا تمام، لقد كان العقاد بشعره حكيماً، والدليل على ذلك كان يقدره النقاد من خلال قوله عن ام كلثوم أن صوتها فقط جميل لأنه لا يعترف بجمال القصائد المغناه "لأنها لم تغن من شعره، ولم تغن أم كلثوم وغيرها من شعر العقاد لأن العقاد لم يلامس العواطف السطحية التي تحرك مشاعر الشعوب ونبض الحياة اليومية. وهي وظيفة الشعر.
لذلك لم تفهم شعره إلا النخبة المثقفة أما باقي الناس فما زالوا إلى اليوم لا يفهمونه أبداً" وقراءة العقاد تحتاج إلى هز الرأس وحكه أما قراءة غيره فلا تحتاج إلى هذا التعب لقد كان من الخير للعقاد أن لا يكتب شعراً على الإطلاق وكان عليه أن يلتزم بتخصصه الدقيق لقد أفلح العقاد جداً بكتابه "التراجم" والمقصود بالتراجم: السير الذاتية للمشاهير والعظماء والعباقرة والأنبياء والرسل، وقدم أعظم كتاب عن نشأة الدين، كان أفظل كتاب من إعماله كتاب "الله" وصدرت طبعتُهُ الأولى سنة ١٩٤٧م وهذا الكتاب من روائع العقاد لأنه كتب بعد مرحلة النضج الفكري وأكاد أن أحسبه أهم مفتاح لشخصية العقاد( ) وكان عمره (٥٨ عاماً) لم يكتب العقاد شعراً يحرك به نبض الشارع العادي أي أن العقاد لم يكن شاعراً شعبياً، بل كان فيلسوفاً عالمياً كَسَبَ بشعره العظماء في عصره ولم يكسب به البسطاء والمساكين، كما كان حافظ إبراهيم لقد كان "حافظ إبراهيم" شاعراً شعبياً رغم أنه كان يكتب باللغة الفصحى، وكان من الممكن للعقاد أن يكون شعبياً رغم أنه لم يكتب بـ (اللهجة العامية) كحافظ إبراهيم الذي غنى للشعب بكل الوانه ومشاكله وقضاياه اليومية ولم يكن شعبياً لأنه في الأصل شخصية انطوائية.
ومن الممكن أن يكون سبب إبتعاد العقاد عن نبض المقاهي وسكك الحديد والعمال والمهنيين أن يكون هذا السبب راجع إلى أن العقاد عميق بقراءته وفهمه الذي يتجاوز فهم الإنسان العادي في الشَارع العام، كتب عنه "جمال الدين الرمادي"
"لا يحرص هذا الأديب الكبير على شيء قدر حرصه على اللغة العربية الفصحى أما اللغة العامية فهي لغة وقت محدودة فهي لا تصلح لبقاء أثر من الآثار التي تستحق البقاء ولن تكسب العامية شيئاً ولا القراء بصيانة حديث العامة"( ).
إن هذا الكلام والذي يدافع عن اللغة العربية الفصحى فيه كثيرٌ من المبالغة والتمجيد، ذلك أن قضايا الأدب تظل ساقطة بعد عصر التطور إذا ما لامست أرض الواقع، وأرض الواقع هي الجماهير العريضة وحياة الناس ومشاكلهم اليومية، إن الطامة الكبرى أن لا يشعر الأدباء والمثقفون بأهمية الحياة العامة، إن اللغة الفصحى قد تكون تزويراً لأرض الواقع!! فما معنى أن نكتب ونقرئ بلغة إن لم تكن ميتة فهي غير مستعملة لا في لغة العلم ولا في الحياة العامة، أو غير دارجة على الإطلاق وأقول هنا أن الجهل والتخلف في هذه القضية قد وصل إلي قمة المتعلمين، يوم كان الهجوم على "لطفي السيد" عنيفا حين بدأ دعوته إلى تسكين حروف الهجاء وفك الإدغام، وزادت حملة ودعوة لطفي السيد سنة ١٩٣١م، ولكن أوقفته الأقلام غير المتطورة، وقد أتهم لطفي السيد من أقلام أنصار العقاد بكثير من الإتهامات ونقرئ لباحث وهو يتحدث عن العمالقة:
"كان لطفي السيد خبيثاً" إذ قال يجب أن نستعمل كلمات مثل: الأتومبيل، البسكلت، والجاكتة والبنطلون( ). ولكننا اليوم نتعامل مع هذه الكلمات وكأنها عربية
لقد أنكر العقاد وغيره على أصحاب الدعوة إلى العامية دعوتهم، ومن الملفت للإنتباه، أن المستقبل قد إنتصر لأصحاب الدعوة إلى العامية، فالأغنية تكتب ٩٩٪ منها بالعامية وإعلانات التلفزيون وأفلام السينما والبرامج الثقافية التلفزيونية، وهذا لم يأت عبر قرار سياسي، ولكنه هكذا جرى ويقول الباحث "محمد راجي الزغلول" :
"أستطيع القول بكل ثقة أن الدعوة إلى العامية الآن لا تقابل بأكثر من الاستهزاء في الوسط الثقافي العربي ولا أظن أن هنالك عربياً يمتلك شيئاً من الولاء للعروبة والإسلام يتفوه بتلك الدعوة وذلك لخطرها على الأمه"( ) ونقرئ عن مفكر حُر هذا الرد:
"إن الأكاديميين يُقفون موقف السدنة الأشاوس من اللغة الفصحى ... على أي حال هل العامية بلا قواعد إذن كيف يتفاهم الناس في الشوارع والأسواق وفي دور العلم بدءاً من المدرسة حتى الجامعة... وحتى برنامج ديني للشيخ محمد متولي الشعراوي"( ).
وتأييداً لهذا المفكر أريد القول أن أكثر البرامج الدينية إثارة ومتعة نسمعها اليوم باللهجة العامية.
وحتى لا نبتعد عن الموضوع نريد القول أن العقاد وقف بعد ثورة ١٩١٩م بجانب المعسكر الفصيح، وإنه على ثقافته العلمية قد دعم وناصر الأفكار والمعتقدات الرجعية التي لم تجعل من اللغة كائناً متطوراً بل كائناً محنطاً، ولكن المستقبل لم يكن لشعراء وأدباء الفصحى بل كان لفلاسفة الزمن السعيد، مُسحت أشرطة تلفزيونية وسجل عليها أصوات أحمد عدويه، وكان أقل مطرب شعبي من الدرجة العاشرة يأخذ في اليوم أجراً يعادل أجر أديب من الدرجة الثانية في شهر واحد وأحياناً في عام واحد.
إن عصر إنطلاقه الثقافة العربية قد شغلتها هذه المواضيع وغيرها، وابدى كل فريق رأيه للفريق الآخر وتخاصموا وتصالحوا، وأحياناً أحسنوا لبعضهم النصح وأحياناً تراجعوا وشتموا بعضهم بعضاً واعتزل كثير من الفلاسفة والأدباء القضايا الفكرية وكتبوا في أي شيء ما عدا الدين والجنس والسياسة، لقد كان الزمن الذي تلا ثورة أحمد عرابي، زمناً ظهرت فيه الناس بأهمية أكثر من سابق عهدها وتنشط المثقفون بفعل الطباعة التي دخلت مصر بعد الحملة الفرنسية، كانت الناس تكثر شيئاً فشيئاً وأصبحت مطالبها تشكل خطراً على الأنظمة الإدارية، وبدأ تجار الكلمة المزيفة يتاجرون بأماني وتطلعات الفقراء والمعذبون في الأرض، تحقيق المطالب مرتبط بتغيرات عالمية وليست بتغيرات داخلية، الجوع والفقر المدقع أكبر عدو للباحثين عن حياة سعيدة وعدد المثقفين قليل جداً والمجتمع يشبه الهرم الذي تتسع قاعدته، ودهاة المال والإقتصاد والبورصة والأوراق المالية ولا يشكلون إلا القلة نظراً لضعف الشركات وكان القلة فقط من يحصل على التعليم.
وطبقة المثقفين أصبح لها أهمية كبيرة نظراً لتوسع سلطة وسرعة الإعلام وهذا فقط في العواصم العربية أما في القرى فتكاد الثقافة أن تكون معدومة على الإطلاق، ومهما كان الظلم قاسياً ولقمة العيش صعبة إلا أن حياة الناس تحسنت بعض الشيء( ).
وألغيت الأعمال بالسخرة، وأعمال تطهير الترع بالسخرة ومنع المقاولين من إستغلال الأطفال في العمل إلا أعمال القطن وكان أجر العامل في عام ١٩٣١ – ١٩٣٣م في مدينة القاهرة ٥ قروش للعامل النشيط و قرشين للعامل العادي البسيط، أما النقص في عدد أيام البطالة فقد أصبح يتراجع ولكن الحياة الإجتماعية كانت تتراجع بين فئات المجتمع وبين أعضاء العائلة الواحدة نظراً لإزدياد ضغط العمل وأيام العمل، لأن الناس أصبحوا بعد ذلك لا يرون بعضهم إلا في المناسبات والأعياد الرسمية، لقد أصبح العامل يعمل في السنة ٢٠٠ يوم بعد أن كان يعمل ٧٠ يوماً.
لقد إزدادت الحياة الشعبية إتساعاً وأهمية بعد أن كانت الحياة من حق النخبة وأرباب القصور ويشهد على ذلك مليونيراً مصرياً وهو السيد: "بدوي" حين قال في خطاب له في البرلمان المصري: أنا من طبقة العمال الفلاحين( ).
وبهذا فقد أصبح بعض السياسيين ينظرون إلى أهمية الشعب اكثر من أهمية الحكومة وهذه بداية الرسالة السياسية بتموين الشعوب بالكلام، وبالأمال الحقيقية وفي أغلب الأحيان بالوعود الكاذبة لقد كانت أكثر الحكومات العربية تتخلى عن الشعب وتتجه إلى البرجوازية الناهظة فما الفرق في ذلك بين من يتخلى عن العمال والناس والجماهير ويذهب إلى سوق المرابين ومصاصي الدماء، والفرق بين أولئك وبين من يتخلى عن لغة الشعب( ) ويتجه إلى النخبة الثقافية والنخبة الثقافية هنا تشبه النخبة المالية البرجوازية الصغيرة والكبيرة قد يكون الشعب غوغائياً ولا يتفهم القضايا الفكرية العالقة بين المفكرين، ومن المستحيل أن تكون الناس كلها من طبقة النخبة، وعلى كل هذا الوضع الجيد الذي أوجد للشعب شعبيته فإنه على هيبته لا يؤثر في القرار السياسي ولا في صناعة المستقبل، وهذا على الإغلب في بعض الأحيان.
وحسب ما أورده حسن حنفي فإن الموضوع مختلف.
"تسود فكرة شائعة خاصة في أوقات الأزمات ولحظات الهزيمة أن هناك فرقاً بين الشعوب والحكام وإنه لو كانت مصائر الشعوب بأيديها لما حدثت الأزمة ولما وقعت الهزيمة فالنظم السياسية وفي قلبها وعلى رأسها حكم الفرد المطلق هي التي تهزم إما الشعوب فإنها باقية إلى الأبد ويتوالى الحكام وتبقى الشعوب".( )
ثم يعدل مقولته:
"سيبقى الرأي العام العربي موجوداً وإن غاب عن المؤسسات الرسمية ويقبع في القلوب ولكنه لا يموت ينفجر بين الحين والآخر ويصحح المسار السياسي ويذكر الحكام بالخط الأحمر".

لقد أنكر العقاد وغيره على أصحاب الدعوة إلى العامية دعوتهم، ومن الملفت للإنتباه، أن المستقبل قد إنتصر لأصحاب الدعوة إلى العامية، فالأغنية تكتب ٩٩٪ منها بالعامية وإعلانات التلفزيون وأفلام السينما والبرامج الثقافية التلفزيونية

العقاد

د علي جواد الطاهر

(١)

عباس محمود العقاد، كاتب كبير، ما في ذلك شك، واذ تركت الدلالة بما كتب والف ونشر.. بقيت الدلالة بما له في نفوس قدر كبير من الناس، الوف وملايين من اعجاب به واحترام له واقبال عليهن وهؤلاء منتشرون على مدى خريطة الوطن العربي من المحيط الى الخليج مع وقفة خاصة عند السودان، اما المعجبون به في العراق فلا يحصون على مر الزمن وتجدد التأليف وتعاقب الافكار، ومنهم من يبالغ -صادقا- فبرى فيه ضربا من المعجزة وهم ينطلقون في ذلك مرة ما قرأوا له من مقالة، ومرة ما رأوا لديه من جديد اذ يحدثهم في الفلسفة وعلم النفس وعلم النبات وكل شيء ، ومرة لما تابعوا اليه من كتب العبقريات ذات الطابع الديني وهكذا مكن لنفسه منزلة عند اهل الدنيا ومنزلة عند اهل الدين -ونترك الجانب السياسي لاهل السياسة وبخاصة السياسة المصرية في تقلباته من الوفد الى "هتلر في الميزان" وتقلبات السياسة المصرية نفسها اذ تعلو كفة وتنخفض كفة مع الانكليز او على الانكليز. ان كلمة كاتب كبير ليست كبيرة عليهن ودونك آثاره تدل وافكاره تشير، واعماله تصرح.. هذا اذا تركنا جبروته في نفسه وعمق اعتقاده ، بقلمه، وفكره وسلطانه فهو الكاتب الجبار عند نفسه، وعند رهط حوله يعمل المستحيل ليعلن الاعجاب بالكاتب الجبار وليجتذب اليه الانظار ويكثر حوله الانصار حتى عدوه مدرسة، فقالوا -في ما قالوا - مدرسة العقاد.

واذ ذكر العقاد ذكر طه حسين وبالعكس، ويأتي الذكر على سبيل الاختلاف، والضد والنقيض، والنقاش الحاد في ايهما الإحسن، والاكبر والاعظم، وتبلغ الحدة احياناً كثيرة بطرف الى ان يجرد طرفاً من كل فضيلة، فليس العقاد اديباً عند قوم، وليس طه حسين أديباً عند قوم - ويطول النقاش على غير طائل على مدى خريطة الوطن العربي..

ويخرج من ذلك ان الذي اشك فيه ان الذي يحب طه حسين لايحب العقاد - وكم تذكرني الحال، لو كان مجال للمقارنة ما يقع -أو وقع - فيه الفرنسيون ازاء روسو وفولتير ، بل وقعت فيه اذ لم استطع أميل فضلا - عن ان احب - فولتير.. وكان شأني من قبل الشأن مع العقاد فما العمل؟

هذا هو الواقع والحقيقي، ولا بد من الصراحة في موطن الذكريات التي لا تقلل من شأن العقاد لدى انصاره ولا تزيد من شأن طه حسين لدى أحبابه، والا فكان الف والف عامل يمكن ان يدفعني الى حب العقاد، فهو كاتب عربي حديث وما في ذلك شك وله المعجبون، وله عندك مقالات وكتب ولك معه قراءات او محاولات قراءات.

أجل ولنكن اكثر دقة، انها في جملتها محاولات في قراءة العقاد تصل اليك مجلة "الرسالة" وفي صدرها مقال للكاتب الكبير عباس محمود العقاد فتحاول ان تقرأ مقبلا طوعا، ومرة كرها، ولكنك لا تمضي معه اكثر من سطور، ونظرات هنا وهناك على اول هذه الفقرة من المقالة او تلك الفقرة منها.. لحظات وتضيق ذرعاً واذا بك تسير يداً بيد مع آخرين كطه حسين او الزيات او المازني او زكي مبارك كلهم.. الا الكاتب الكبير.. أشهد ان شيئاً من ذلك لم يقع بتأثير خارجي، لأن الذين يقرأون الرسالة حولي كثيرون، والذين يقرأون مقالات العقاد كثيرون فضلا عن يثني ويطري ويعجب.. ويستعظم.

ولو كان للخارج من تأثير لكان للعقاد ولا عليه، ولو سألتني عن اول كتاب وقعت عينك عليه في بيتك، وكان ذلك مبكراً جداً، وربما في السابعة او الثامنة من العمر لأجبتك من غير تردد كتاب الكتاب الثلاثة والكتاب الثلاثة هم: عباس محمود العقاد ، سلامة موسى، مصطفى لطفي المنفلوطي -واذا كنت في تلك السن بعيداً عن القراءة، والفهم فان وهو هذا الكتاب في البيت وفيه هذه الاسماء اللامعة مصحوبة بصور لا تمحى من الذاكرة - لعباس محمود العقاد -طلعته وقد يكون من دون شارب اجل لابد من ان يكون (عبسا محمود العقاد؟ كيانا مهما بحيث احتل المكانة البارزة من الكتاب..

ثم ترد الرسالة الى الحلة ويقرؤها من حولك.. ومنهم اخوك، وتقرؤها انت.. وتكاد تقرأ كل شيء ما بين الافتتاحية والبريد الا دبي الا ان مقالة يتصدرها اسم (الكاتب الكبير) لماذا؟ لابد من ان يرجع السبب الي، وليس الى عامل خارجين وفي هذا السبب ثقل أحسه لدى القراءة، وخشونة في اللغة، وتباعد في المعنى، ولم اكن - كما اتضح في ما بعد -وحيدا في الاستثقال وقالوا في ما قالوا العقاد معقد.

ثم ماذا؟

قد يكون العقاد مفكرا عميق التفكير حيث يذهب المتنطعون من انصاره ودعاته والمتأثرين بانصاره، ودعاته مذهبا يعدونه فيه فيلسوفا ناسين أو متناسين ما يلاحظه الطرف الاخر على هذه الافكار، من استيراد خاص لدى قراءة في كتاب اجنبي او عن نظرية اجنبية لا يلبث "الفيلسوف" المصري ان يتبناها ويطلع بها على القراء العرب وبأنه صاحبها..

العقاد

(٢)

قد يكون العقاد مفكراً، فيلسوفاً صح ذلك ام لم يصح..ولكن الكينونة وحدها تدفعه عن ميدان الادب حيث الموهبة المبدعة لدى تصوير العاطفة موشاة بالخيال، وكلها طراوة.. وانك لواجد هذه الموهبة لدى صاحبك طه حسين ولدى اصحابك الاخرين، وفيهم الزيات والمازني وزكي مبارك.

قد يكون مفكرا، باحثا، عالما مثقفا.. ، وان

قد يكون العقاد مفكرا عميق التفكير حيث يذهب المتنطعون من انصاره ودعاته والمتأثرين بانصاره، ودعاته مذهبا يعدونه فيه فيلسوفا ناسين أو متناسين ما يلاحظه الطرف الاخر على هذه الافكار، من استيراد خاص لدى قراءة في كتاب اجنبي او عن نظرية اجنبية لا يلبث "الفيلسوف" المصري ان يتبناها ويطلع بها على القراء العرب وبأنه صاحبها

اشياء من ذلك لكائنة فيه مستوردة او متبناة او متمثلة او قبس فيها الشبيه لدينا بالشبيه لديهم.. اجل، ولكن هذا ليس كل ما يطلبه طالب الادب المبدع الذي يسحره اللفظ، ويخلبه الخيال وتجتذبه العاطفة..

وهنا، هنا يكمن السبب، اذا طلبنا السبب، وتركنا روح التعالي التي يطل بها عليك من على كاتب اسمه العقاد بها اديب اسمه طه حسين، وتدخل دار المعلمين العالية، ولايمكن ان تخلو دار من عقاد وطه حسين ولابأس فأنك تبقى حيث كنت لان كينونتك السابقة حصلت طبعاً..

وتلقائياً واذا كانت المسألة مسألة فلسفة، فكتب الفلسفة حاصلة، ولدينا منها غير قليل، ونقدم منها بين ايدينا قصة الفلسفة اليونانية ، وقصة "الفلسفة الحديثة".

ولو لم يكن ما كان طبيعياً لتأثر هذا "الطالب" الطري باستاذه الكبير الدكتور محمد مهدي البصير وهو يحل العقاد مكانا عاليا ولا يعرج على نواقص" يراها طه حسين.

ثم ان لك في زملائك من هو اديب، قارئ ، متتبع ينظم الشعر الجيد، ويقرا الفكر الغربي المترجم، وهو وبناء على هذا عقادي مع العقاديين وابعد من كثيرين منهم.. ويبدو اعجابه بالعقاد كالمصيبة عليك عندما يبلغ الشعر، فاذا العقاد شاعر كبير، مبدع، مجدد. تلك طامة كبرى عليك، وانت في أوج صعوبتك في الحكم على شاعرية مقترنة بالموسيقى حتى اخرجت العشرات ممن تواطأت الدهور على شاعريتهم، فكيف، وبأي حق تقبل شاعرية العقاد.

قد يكون شاعراً مجدداً ولكنه ليس شاعراً ، وليس شاعراً كبيراً.

وتشتد المناظرة ، وكان من اظرف ما فيها ان يقرا طرف أمثلة من شعر العقاد نفسه على انها المثل التوضيحي للاشاعرية.

وتتخرج في دار المعلمين العالية (١٩٤٥) والحال حيث هي... دون ان تمنعك من قراءة كتاب للعقاد في سلسة اقرأ بعنوان "شعر الغزل" ودون ان تمنعك قراءة شاعر الغزل من الاعجاب مرة بجديد يغريك به الكاتب ومن التعجب من نظريات استوردها من فرويد وتقرأ له كتاباً آخر.

وتقرأ سلسلة من العبقريات ولكنها كانت كتب من الكتب.. لاتجد فيها ما يجده "المعجبون" من خوارق.. واذا وجدت الخوارق في "التلباثي" فانها خوارق مستوردة مطبقة مرة في مكانها ومرة في غير مكانها، وسواء اصح هذا ام ذاك فهي فكر وتاريخ وجمع وتحليل.. وليست ادبا؟ حتى "ابو الشهداء" هذا الكتاب الذي اقبل عليه الناس اقبالاً خاصا ما كانت له هذه الشهرة لو لم يكن كاتبه العقاد، والا فأنت اذا اردت ان تقرا التاريخ أدبا فأقرأ "على هامش السيرة" لطه حسين -وشتان".

ويترك العقاد كثيرا في عيون عراقيين تابعوا موقفه السياسي ورأوا ما لم يروه من قبل، وها انتذا في عام ١٩٤٨ تطلب "العلم" في كلية الاداب جامعة فؤاد بالقاهرة، ومهما يكن من موقفك فلا بد من زيارة العقاد، فهو كاتب كبير على اية حالٍ، وهو مؤلف وسيسألك، هل رايت العقاد؟

أجل وتبقى وسيلة الوصول ولاتصعب وسيلة على طالبها، فنمرة التلفون ممكنة وها هو ذا نفسه يقف في الطرف الاخر، من السلك فتقول له -بعد السلام عليه - انك من "البعثة العراقية" في مصر فيزداد ترحابه ويكاد يفتح لك بابه آنيا، ثم يتراجع قليلا عندما يعرف المقصود من "البعثة" فلست انت في مصر عضواً من وفد رسمي يزور مصر. وانما انت طالب...الخ. وينتهي التراجع بالقول انه يفتح بابه لزائريه في الجمعة ، من كل اسبوع..الخ..

وتحل الجمعة، وها أنتذا في اول الصباح بمصر الجديدة ويدك على جرس الشقة وداخل صالة مستطيلة الى اليمين وتخبره انك بكرت لسبب خاص تقصد به ان تلقى اسئلة على الاستاذ العقاد وتتلقى الاجوبة.

فرحب..

وشرع يتحدث عن نشأته وعن أسوان.. وكان اهم جواب عن اهم سؤال ما قام على تعلمه الانكليزية ، فقد تعلمها، كما هو معروف كما تعلم كل شيء -خارج المدرسة - وكانت للمدرسة مكان من حياته وتعلمها خصوصا من الانكليز الذين كانوا في اسوان ومن نواديهم ولا اتذكر كيف كان يدخل تلك النوادي.

وتشعب الحديث.. ومن شعبه ما بدا على "الكاتب الكبير" من ارتياح خاص لدعوة كان تلقاها من العراق لمناسبة صدور كتابه "ابو الشهداء" وتركته على ارتياحه ولم ارد تعكير مزاجه، ولو اردت لقدرت، ويكفى ان اقول له: ان تلك الدعوة لعلها لم تكن للتأليف وإنما لأن المؤلف هو العقاد -والا فاني رأيت كتاب عبد الله العلايلي "اشعة من حياة الحسين" أصدق عاطفة وابلغ بلاغة ولكن لم أرد وحسناً فعلت ولكل مقام مقال.. واني ضيف العقاد على اية حال -مع ملاحظة ان ضيافة العقاد لزائريه لاتعني اكثر من فتح الباب والدخول الى القاعة واقتعاد اقرب مكان من "تخوت" صفت بموزاة جدرانها ثم الاصغاء فالرجل هو هو الذي يتكلم واذا تكلمت انت فلا تزيد على ما هو أكثر من سؤال او تأييد او اعجاب.

واكثر الزوار شباب، ولم يدلوا على اكثر من انهم جاءوا ليزوروا العقاد في بيته "شقته" وشذ بين الحاضرين اديب معروف كان آنذاك يصول ويجول في مجلة الرسالة ولم يبق في مجلة الرسالة من الكبار غير العقاد، والاديب المعروف هو الاستاذ علي الطنطاوي (الشامي المقيم في مصر) وجرى بين الاديب الكبير والاديب المعروف حوار اتضح خلاله ما يثير العجبن وكانت قمة العجب جهل العقاد بالطنطاوي وانه يراه للمرة الاولى - او هكذا بدا لي - مع انهما يكتبان في "الرسالة" من أمد غير قصير.

ولم يكن في الشباب الحاضرين فيما بدا - من قرأ علي الطنطاوي أو اعجب به او سمع.. وليس هذا بالمهم فليس علي الطنطاوي هو المهم إنما المهم المهم الاستاذ العقاد.. وها هو ذا ازاءك بعظمه ولحمه ضخم البناء، جهوري الصوت، ولكنه لم يلق في نفسك هيبة او تهيبا، ونستطيع ان نرد ذلك الى انك لم تزره معجبا محبا وإنما زرته لأنك زرته، ولو كان غيرك من المحبين العراقيين لخالجته الرهبة واضطرت قدماه وتعثر لسانه وشعر وكأنه في حلم.

أجل ولكن هذا تصور فقط، لان العقاد لايوحي بالمهابة والجلال والقدسية ..وقد يرد ذلك الى تعاظمه وبعده عن التواضع وعن الاحبة ونسيان العقاد.

ثم ماذا؟

ثم انه يستقبل زواره في "البجامة" جالساً في أقصى الركن الايسر من الداخل الى القاعة ولاتكاد تبتعد يده اليمنى عن محزم بجامته.. وعلى رأسه "طاقية" من قماش البجامة.

ينتصب جالساً في هذا الركن من القاعة والى الاعلى من رأسه ينتصب تمثال نصفي ضخم للعقاد.

ويقترب الظهر..

وينقضي "السامر" .

وتعود ادراجك.

وتسأل نفسك عما بقي في نفسك من زيارة "الكاتب الكبير" فتجد شيئين لهما ثالث، اما الثالث فهو حديثه عن "غباء" خادمه، وأما الثاني فضيقه بشكوكو، وكان قد احتل مكان الشهرة العالية في المجتمع واكثر ما ضايق العقاد من الامر: تماثيله -تماثيل شكوكو - التي تباع في البلاد وتلقى الاقبال النادر (فأين العقاد اذا، واين تماثيله؟).

واما الثالث فحكمة وراءها ما وراءها من عمق نفسي وتأمل في صوغها: "ذلت أمة اديبها طه حسين ومطبرها محمد عبد الوهاب".

مجلة الكلمة ١٩٧٢

في الثمانينيات من القرن الماضي، عرض التلفزيون الغربي مسلسل (العملاق) عن سيرة الاديب الكبير عباس محمود العقاد، غير ان المسلسل وقد عرض باسماء فنية تخللته الكثير من العترات التاريخية، بسبب ميله الى تمجيد العقاد-وهو أهل له -والميل له على حساب عدد من الحقائق.. ولا ننسى هنا ان المشرف على النص كان الاستاذ عامر العقاد، وهو ابن شقيق الكاتب الكبير..

ومن تلك الثغرات التي اثارت الكثير من التداعيات والردود، صلة العقاد بالنساء، وموقفه العام من المرأة! وكنت قد كتبت انذاك مقالاً في احدى الصحف، عن المسلسل وكيف قدم لنا شارعنا الكبير الزهاوي بصورة بائسة ، ثم اشرت الى ان المسلسل قدم موضوع النساء والعقاد، بشكل يوحي الى ان موقفه كان سليماً وان النساء كن يتسابقن للفوز بحبه.. ومن الطريف ان الاستاذ عبد الجبار داود البصري كتب معقباً على مقالي وضمن تعقيبه ما ذكره عدد من انصار العقاد مثل محمد خليفة التونسي والعوضي الوكيل وغيرهما..

نساء حول العقاد

رفعة عبد الرزاق محمد

والملاحظ ان قضية موقف العقاد من النساء لم يثر الا بعد وفاته عام ١٩٦٤ ، وربما كانت خشية الكتاب من العقاد وقلمه اللاذع السبب في عدم اثارة الموضوع في حياته! وقد تبين لي بعد ذلك جملة من الحقائق والمواقف اعرضها سريعا كما يلي:

×بدرية

احب العقاد فتاة صغيرة كما يحب الاباء الابناء، وكانت موضع عنايته ، ولكن هذه الفتاة اقدمت على الانتحار في اليوم التالي من وفاة العقاد ١٤ اذار عام ١٩٦٤ ، ولم تبلغ العشرين من عمرها واسمها (بدرية) وتعددت الاقوال حول تلك الفتاة، فبعضهم قال انها أبنة غير شرعية للعقاد، ونفت اسرة العقاد الامر جملة وتفصيلا ، وكتب عامر العقاد مقالاً في مجلة (الهلال) عام ١٩٦٩ حول هذا الموضوع.

وما جاء فيه ان الصحف نشرت خبراً مثيراً مؤداه ان فتاة كان العقاد قد تبناها في حياته انتحرت حزناً عليه وقال الكثيرون ، لماذا لاتكون هذه الفتاة المنتحرة ابنة العقاد من زواج غير معلن او غير شرعي؟! وقال ابن شقيق العقاد ان تلك الفتاة واسمها (بدرية) كانت تزور الكاتب الكبير كل اسبوع، وهي موضع عطفه ورعايته كما كانت تقضي عطلة الصيف معه في الاسكندرية برفقة أختها الكبرى.

وأضاف عامر العقاد ، انه في عام ١٩٣٣ توفي جار للعقاد وهو تاجر شامي وكان صديقاً للعقاد: فأتخذت زوجة هذا التاجر الاستاذ العقاد مستشاراً لأسرتها المكونة من هذه السيدة وأبنتها..وعندما مرت بالعقاد أزمة مالية بعد اختلافه مع حزب الوفد، وحاول آنذاك الانتحار بعد ان باع مكتبته بأبخس الاثمان، غير ان تلك السيدة الارملة اسعفته وقدمت له مبلغا كانت تدخره لزواج ابنتها ما زاد في صلتهما.

وفي عام ١٩٤٥ تزوجت السيدة من رجل آخر وأنجبت منه (بدرية) وتوالت الاحداث، اذ ماتت السيدة وتخلى زوجها الثاني عن ابنته وتركها عند أختها الكبيرة، وعندما ارادت هذه تسليم أختها الصغيرة لأحد الملاجئ لانها لا تستطيع الانفاق عليها وتربيتها.

وعندما علم العقاد بالامر تعهد بالانفاق على تلك الفتاة ما دام حياً، وظلت برعايته منذ عام ١٩٤٧، وكانت تطلق عليه كلمة (بابا) وعندما مات العقاد لم تحتمل الفتاة الصدمة وأنتحرت في اليوم الثاني من وفاة العقاد، بعد ان علمت في اليوم نفسه انها ليست أبنة العقاد هذه هي قصة الفتاة المنتحرة بسبب موت العقاد، وقد اثارت عند اعلانها العديد من الاعتراضات والشبهات.

×مديحة يسري

اعترفت الممثلة القديرة بقصة علاقتها بالعقاد في اكثر من مناسبة، فقالت عن قصة هذه: تعرفت على العقاد وأنا في سن صغيرة وتأثرت به كثيراً، وقد علمني القراءة رحب الكتابة والاعتزاز بالكرامة، فقد كان يعطيني الكتاب، يطلب مني وضع خط تحت الكلمات الصعبة ليشرحها لين وأهم شيء تعلمته منه الكبرياء والاعتزاز بالنفس، وقد انقطعت صلتي به، عندما بدأت العمل بالسينما ولكنني كنت اتصل به في المناسبات..

وأكد الشاعر صالح جودت في كتابه... "بلابل من الشرق" ان العقاد عاش ومات وهو يكتم حباً كبيراً في حياته بطلته نجمة سمراء.. واعترف بأنني هي التي احبها العقاد".. التقى العقاد مديحة يسري عام ١٩٣٩ وهو في الخمسين من عمره وهي دون العشرين، وبالرغم من هذا فقد احب العقاد مديحة حباً شديداً، حتى قبل ان كل قصائد الحب في ديوانه "بعد الاعاصير" كانت عن هذا الحب العنيف ومن الطريف ان (جيته) الاديب الالماني قد احب وهو في الستين فتاة في سن العشرين، ولم تفت هذه العقاد، فقال بيتين شهيرين من الشعر:

يا صديقي القديم (جيتي) اعتذار
لك من سوء ظنتي وملامي
كنت انعى عليك حبك في الستين
بنت العشرين ، فأعفي ملامي

×سارة

كتب عباس محمود العقاد روايته الوحيدة(سارة) عن قصته العاطفية بعد قصته مع الآنسة مي، كما سنرى بعد قليل.. وربما كانت هذه ، هي القصة الغرامية الحقيقية في حياة العقاد، وحبيبته لبنانية الاصل واسمها (اليس) وسماها في روايته (سارة) كانت تعيش مع اهلها في مصر، وقد التقاها العقاد مصادفة عند احدى زياراته لصديقه الدكتور محمد صبري (السوربوني) فتعرف عليها، وقد ذكر مؤرخو سيرة العقاد ان اليس ملأت حياة العقاد سعادة لم يعرفها من قبل، ويذكر عامر العقاد في كتابه "غراميات العقاد" ان أليس اصبحت الوحيدة التي لايستغني عنها العقاد، فكان يجتمع معها في البيت، ولوحدهما فتقوم بترتيب بيته وتنظيمه وتضيف اليه جمالاً وسروراً.

وكادت العلاقة بينهما تنتهي الي الزواج السعيد، غير ان (سارة) كانت امرأة قلقة عاطفيا، وعندما حاول العقاد معرفة اسرارها، اعترفت له انها كانت على علاقة بغيره في الوقت نفسه الذي كانت لها بالعقاد علاقة حب (!). وانها اقامت العلاقة الجديدة خلال رحلة لها الى لبنان. فدخل الشك الى قلب العقاد واصبح يؤرقه وبدأ بعدم الوثوق به. ثم أخذ بمراقبتها بمساعدة صديقه الاديب (طاهر الجبلاوي) ، وهو من اخلص اصدقائه واكتشف بعد ذلك ان لصديقته (سارة) علاقة أخرى وهو ضابط شرطة، فقرر العقاد وضع نهاية لعلاقته بها.

×الآنسة مي

كتب الكثيرون عن الرجال (المحبين) للكاتب العربية الكبيرة مي زيادة، وصدر اكثر من كتاب عن ذلك، ويبدو ان رقتها وصالونها الادبي العامر، أوحى للكثيرين انهم بستطاعتهم الدخول الى قلبها، وهكذا اصبح موضوع (حب مي) تتنازعه العديد من الآراء والروايات، لقد كانت الانسة مي ، اضافة الى موهبتها الادبية الكبيرة وثقافتها الرفيعة وصالونها، وهو مجلس ادبي كبير حضره كبار الكتاب والمفكرين العرب في عشرينيات القرن الماضي، جميلة ورقيقة في حديثها وتصرفها ورسائلها المتبادلة مع الادباء، ولعل رسائلها مع جبران خليل جبران الاشهر في ادب الرسائل في الادب العربي الحديث.

لقد كان كبار الادباء حريصين على لقاء مي في مجلسها بدون انقطاع.. وكان يعقد كل يوم ثلاثاء ، حتى قال الشاعر الكبير اسماعيل صبري:

روحي على دور بعض الحي هائمة
كظاميء الطير تواقاً الى الماء
ان لم امتع بمي ناظري غدا
انكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

لقد ذكر عن (علاقة) خاصة لمي زيادة مع عدد من الادباء الكبار كالشاعر ولي الدين يكن والكاتب مصطفى صادق الرافعي الذي كتب عن حبه لمي كتابا كاملاً هو (اوراق الورد)، ثم العلاقة الشهيرة مع جبران خليل جبران وقد تجسدت في الرسائل المتبادلة بينهما بالرغم من عدم لقائهما ابدان ويبدو للباحثين ان مي احبت جبران وحده كما يستشف من رسائلها له ونشرت في كتاب باسم (الشعلة الزرقاء) ، ولهذا الموضوع مناسبة اخرى، ويهمنا هنا عن علاقتهما بالكاتب الكبير عباس محمود العقاد.

تدل الرسائل المتبادلة بين الانسة مي والعقاد، على ان الاخير كان عاشقا لها ولم تنشر الرسائل الا بعد وفاته، كما ان بعض قصائد العقاد الغرامية ذكر مؤرخوه انها موجهة الى الآنسة مي، غير ان المشكلة هيك هل احبت مي العقاد؟ لا يوجد ما يدل على ان مي احبت العقاد، فكل رسائلها، مختلف الاعلام باستثناء جبران ، تتضمن عبارات التلميح وليس التصريح، والحقيقة ان علمين كبيرين كالعقاد ومي لاتخفى على الناس مثل هذه العلاقة، ومن الطريف ما ذكرته الاديبة المصرية جاذبية صدقي في مقالها في مجلة الهلال بعنوان "ذكرياتي مع العقاد" من ان العقاد اعترف لها انه كان يستخدم مع مي اذا ما تشاجرا طريقة واحدة لايغيرها، اذ يبادر الى نشر مقال عنيف ضد الحكومة حتى تأخذ مي بالخشية عليه من الاعتقال ؟ اليه وترتمي عن ركبتيه وتقبل يده، وتستحلفه ان يكف عن الهجوم على الحكومة.

ويقول العقاد: كم من مرة ظلمت سياسيين مثل اسماعيل صدقي وعبد الخالق ثروت لا لشيء الا لكي تجيئني مي وتبدأ الحديث وتنهي الخصام.

لقد كانت قصيدة العقاد في رثاء مي من اجمل القصائد، وعنوانها (آه من التراب) وفيها:

اين في المحفل مي يا صحاب؟
عودتنا ها هنا فصل الخطاب
عرشها المنبر مرفوع الجناب
مستجيب حين يدعها مستجاب

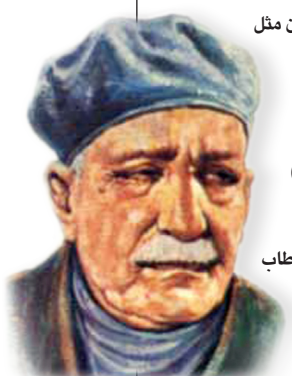

لايذكر الانسان شعراء العراق دون ما يقفز في ذهنه الرصافي والزهاوي فهما جناحا الشعر في المدرسة القديمة العراقية، واستطاع الشعر العراقي ان يرفرف بذينك الجناحين ردحاً من الزمان، ولايزال..

ومعركة العقاد والزهاوي من المساجلات الادبية التي اثارت نقاشاً وحواراً لفترة طويلة. ولشخصية الزهاوي عند العقاد مكانة التقدير والتجلة، كذلك بالنسبة لفكره وأدبه، وفي ذلك يقول العقاد: "ترددت لاني اعلم انني استطيع ان اتبسط في شرح كل رأي اراه في الادب والشعر دون ان اعرض للاستاذ الزهاوي نقداً او تحبيذاً وخلافاً أو وفاقاً، ولأنني أوقر هذا الباحث الفاضل واعرف استقلال فكره واستقامة منطقه وجرأته في جهاده وغبنه بين قومه، فلا أحب ان اقول فيه -لغير ضرورة من ضروورات البحث -مقالاً يوائم ذلك التوقير ولا يناسب ما له عندي من القدر والرعاية".

العقاد عند جميل صدقي الزهاوي

تلقى العقاد تلك الرسالة التي اثارت المعركة بينه وبين الزهاوي في عام ١٩٢٧ وعقب عليها بتاريخ ١٦ سبتمبر عام ١٩٢٧ وضمنها مجموعة مقالاته التي نشر ها بكتابه ساعات بين الكتب تحت عنوان "كلمة عن الاستاذ الزهاوي"

وان من عرف الزهاوي، وقرأ له مؤلفاته وقصائده، بعضها أو كلها، ليس بمنته الى رأي أصدق منٍ هذا الرأي، وليس بواضعه في مكانة خيراً من هذه المكانة التي وضعه فيها العقاد، وفاء واجلالا وتقديرا لعمله وفضله وفكره.

وتتلخص مساجلات العقاد وشاعر العراق الكبير في ان البريد حمل للعقاد رسالة من أديب تونسي يسأله فيها ان يبدي رأيه في أديب العراق الاستاذ جميل صدقي الزهاوين ولم يكن العقاد إذ تلقٍى الرسالةٍ يقدر انه بجوابه سيثير نقاشا وحواراً بل وسيخوض معركة تطول.

ولكن الزهاوي لم يرق له ما عنه العقاد..لم يعجبه ان يكون نصيبه من الملكة الفلسفية والملكة الشعرية –كما قال العقاد: فطالع الناس برد له على مقال العقاد في "السياسة الاسبوعية" قال فيه انه فيلسوف وانه شاعر لايقل حظه من الفلسفة ومن الشعر عن حظه من الملكة العلمية، وينتقد فيه العقاد نقداً خفيفاً أو غير ظاهر، ولكنه لاذع بعض الشيء..

وقد تلقى العقاد تلك الرسالة التي اثارت المعركة بينه وبين الزهاوي في عام ١٩٢٧ وعقب عليها بتاريخ ١٦ سبتمبر عام ١٩٢٧ وضمنها مجموعة مقالاته التي نشر ها بكتابه ساعات بين الكتب تحت عنوان "كلمة عن الاستاذ الزهاوي" جاء فيها:

جاءني الخطاب الاتي من صاحب الامضاء بتونس، قال كاتبه الاديب بعد ديباجة التعارف"" اما الان فبقيامكم ضد الثرثارين وتقويضكم لبناء ما كانوا يحسبونه آثاراً أدبية وإماطتكم اللثام عن كل من كنا نعدهم من الشعراء الفحول والكتاب المبرزين –قد أسفرت النتيجة عن تجدد حقيقي في اللغة والادب إذ أدركوا ما تركون اليه في انتقاداتكم فهبوا يتبارون فيه جاهدين قرائحهم وصارفين مهجهم نحو"الحياة" نحو "الجمال" نحو"المثل العليا" ، تلكم الكلمات الحية التي ما وجهت طرفي نحو أي سطر من فصولكم ومطالعاتكم ومراجعاتكم ونحو اية صفحة مما تكتبون الا عثرت عليها.. ولصرف مهجتكم الى هذه المطلب، ونقدكم الصحيح الخالص من الاغراض، وسعيكم وراء الحقيقة، رضي القوم أم غضبوا –أتيت اعرض عليكمٍ كلمة في رفيق صباي ومربي روحي راجيا منكم التفضٍل بإبداء رأيكم فيه ولكم الشكر الجزيل سلفاً، لأن كل هات يكم الخلال جعلتني كما جعلت غيري يعبرون قولكم الفصل فيمن تكتبون له أو عليه.

ولكم الرفيق يا سيدي هو فخر العراق كما تقولون جميل صدقي الزهاوين فقد عرفته منذ دخلت المدرسة وأولعٍت بديوٍانه حتى انني كدت ان احفظه نثراً ونظما، فمن نزعته في الشعر الى قوله في القبر:

ولست بمسؤول اذا ما سكنته
اكنت عبدت الله قبلا ام اللاتا

الى قوله فٍي مهاجمته:

يا قوم مهلا مسلم انا مثلكم
الله ثم الله في تكفير

وعندما اسأم استمرار قراءاتي فيه اعمد بعد تحضير واجباتي المدرسية الى مطالعة احد الدواوين فأرى نفسي كأنني انتقلت من روضة حافلة بالازهار من كل صنف زاهية بالماء الزلال الجاري و"الهزار" على اغصان اشجارها يشدو بنغماته العذبة الشجية الى ارض قاحلة لا ماء فيها ولا شجر ولا هزار، فلا ألبث ان اعود الى ديوٍاني الاول وشٍغفي به يزداد كلما رأيته سابقاً وغيره لاحقاٍن وهكذا.

وما أقوله لكم في ديوانه أقوله لكم في مباحثه التي تنشٍر في الهلال حتى أنني اذا لم اجد فيه فصلاً مٍن فصول جميل انقبضٍت نفسي لذلكم كثيراً.. واذا رأيت فيه مبحثاً له قدمته على سائر الموضوعات فقرأته وأعدته المرار العديدة حتى تعلق بذهني جمل منه، ومن الجمل افكار، ومن الافكار مناقشة تنتهي بي الى قضاء جزء كبير من اوقاتي معه، وحمادي القول ان السيد جميل لهو أحق بالنقد من سواه وبمن يظهر آثاره الادبية والفلسفية. وهذا لايتصدى للبحث فيه الا من يقدرون الادب حق قدره، إذ من العار أن نبقى كما قال فيلسوف العراق لانعرف فيمة للأديب في قطرنا الا بعد مماته:

من بعد ما في قبره
أوصاله تتبعثر
ماذا من التكريم
يرجو ميت لا يشعر

..هذا وأنني اعتذر الى سيدي الاستاذ من تجرئي على مكاتبته إذ لست ممن يراسلون أمثاله.. ولولا إعجابي بجميل صدقي الزهاوي وحبي لناقد خبير ينشر للقراء آراءه ويبين لهم فجها من ناضجها ما تسرعت في المراسلة أترجى ما يقال في فخر العراق وعنه".

عبد القادر بن خليفة بن ميلاد

جاءني هذا الخطاب من شهر مضى وفيه غيرما نشرت هنا كلام مسهب في مثل هذا المعنى ولواحقه، فتوسمت منٍ لهجته وخلوص إعجابه ادباً جماً ونفساً مستشرفة الى الحقيقة، وهممت ان أجيبه الى رغبته ولكنني ترددت لأنني أعلم أنني استطيع أن أتبسط في شرح كل راي أراه في الادب والشٍعر دون انٍ اعرضٍ للاستاذ الزهاوي نقداً او تحبيذا وخلافا أو أوقر هذا الباحث الفاصل وأعرف استقلال فكره واستقامة منطقه وجرأته في جهاده وغبنه بين قومه، فلا أحب ان اقول فيه لٍغير ضرورة من ضرورات البحث مقالاً لا يوائم ذلك التوقير ولا يناسب ما له عندي من القدر وٍالرعاية، ثم عن لي ان في الكلام عليه مجالا لكلمة أخرى تقال عن التفريق بين الملكة العلمية والملكة الشعرية، وبين بديهة الفيلسوف وبديهة العالم، لاضير منها على احد عامة ولا على الاستاذ الزهاوي ومن يعجبون به خاصة، اذ هو ممن يقال فيهم قول حق لايغضب الطبيعة القوية والنفس المروضة والضمير الواثق من قصٍده وعمله، فكتبت هذا الفصل الموجز آملاً ان أجيء فيه بحقيقة تسوغ المساس برجل لا أحب ان امسه بغير ما يرضيه.

أول كتاب قرأت للزهاوي كان كتاب "الكائنات" أو "رسالة الكائنات" لأنها عجالة مختصرة من القطٍع الصغيرة وكان ذلك قبل عشرين عاماً او نحو ذلك وانا يومئذ كثير الاشتغال بما وراء الطبيعة وحقائق الموت والحياة ومباحث الدين والفلسفة، فراقني من الرسالة سداد النظر وقرب المأخذ ووضوح التفكير والجرأة على العقائد الموروثة مع ما في ختام الرسالة من اعتذار لايخفي ما وراءه ولا يغير رأي القارئ ، فيما تقدمه ، وكنت كلما عاودتها تبينت فيها منطقاً صحيحاً يذكر القارئ بإشارات ابن سينا وبـ "جيتي" ويزيد عليهما بالجٍلاء والترتيب، ثم قرأت للزهاوي شعراً ونثراً وآراء في العلم والاجتماع تدل على اضطلاع واستقلال ونزعة الى الثقة والابتكار، وكان آخر ما قرأت له رسالة "المجمل مما رأى" ثم شعر ينشره في الصحف المصرية من حين الى حين.

هل الزهاوي شاعر أو عالم او فيلسوف؟ ان اثاره في الشعر والنثر تدعوك الى هذا السؤال ، فمباحثه مما يتناوله الفيلسوف والعالمن ونظمه يسلكه بين طلاب المقاصد الشعرية! وقد يختلف جواب الناس على السؤال الذي سألناه فيعده بعضهم من الفلاسفة وبعضهم من الشعراء ويميل به بعضهم الى فريق العلماء، اما انا فرأيي فيه انه صاحب ملكة علمية تطرق الفلسفة وتنظم الشعر بأدلة العلم ووسائل العلماء.

الشاعر صاحب خيال وعاطفة، والفيلسوف صاحب بديهة وبصيرة وحساب مع المجهول ، والعالم صاحب منطق وتحليل وحساب مع هذه الاشياء التي يحسها ويدركها أو يمكن ان تحس وتدرك بالعيان وما يشبه العيان، فاذا قرأت مباحث الزهاوي برزت لك ملكته المنطقية لا حجاب عليها، ولمست في ارائه مواطن التحلٍيل والتعليل. ولٍكنك تضل فيها الخيال كثيراً والعاطفة احياناً، وتلفت الى البديهة فاذا هي محدودة في اعمقاها واعليها بسدود من الحس والمنطق لاتخلي لها مطالع الافق ولاٍ مسارب الاغوار، فهو يريد ان يعيش ابداً في دنيا تضيئها الشمس وتغشيها سحب النهار ولا تنطبق فيها الاجفان ولاتتناجى فيها الاحلامن وليست دنيا الحقيقة كلها نهارا وشمسا ولكنها كذلك دليل وغياهب لاتجدي فيها الكرهباء، وقد خلق الخيال والبداهة للانسان قبل ان يخلق العقل ثم جاء العقل ليتممهما ويأخذ منهما لا ليلغيهما ويصم دونهما اذنيه. فأما الزهاوي فهو يحاول ان يلغي الخيال والبداهة ويظن ان الانسان لايتصل بالكون الا بعقله ولا يهتدي الى الطريق المفطور الابعقله، وليس هذا بصحيح في حكم العقل نفسه اذا انصف العقل ووفي لمنشأه الاول وقصارى مطمحه

الاخير.
ان كل منطق لايكون صحيحاً اذا دخل في حسابه امران محيطان بنا متغلغلان فينا لا مهرب منهما ولا روغان، نعني بهذين الامرين "المجهول" اولا، و"العاطفة" ثانياً ، فهما راصدان لكل قضية منطقية يهدمانها هدماً ما لم يكن في زواياها مكان مقدور، فالعالم لا شأن له بالمجهول وليس له شأن كبير بالعاطفة كما يحسها الشعراء، وهو اذا اراد حصر نفسه في معمله خرج منه بنتيجة علمية لا غبار عليها من ناحية النقد والاستقراء، ولكن الفيلسوف اذا خرج الى دنيا لا مجهول فيها ولا عاطفة توحي اليها انما يخرج الى دنيا غير دنيانا هذه وانما يأتي لنا بفلسفة خليقة بعالم آخرن غير عالمنا الذي يحيط به مجهوله وتعمل فيه عواطفه، وقد يصيب بمنطقه هذا في حقائق الارقام، والاحصاءات ولكنه لايصيب به في معاني الشعور واسرار الحياة، اذ كيف يحسب حساباً لهذه المعاني والاسرار وهو لايحسها ولا ينقاد لدافعها؟ وكيف يصيب في المباحث النفسية وهو لا يحسب حساباً لتلك المعاني والاسرار؟
من منا يكون محباً معقولاً مطابقاً للمنطق اذا هو نظر الى حبيبه بالعين التي يراه بها جميع الناس؟ ان نظرك اليه قد يكون معقولاً مطابقاً للمنطق اذا نظرات اليه بتلك العين التي يراها بها من لا يحبونه ولا يؤثرونه على سو اه، ولكنك انت نفسك –انظر الناظر – لاتكون "محباً منطقياً" موافقاً للمعقول والمعلوم من شؤون المحبين حين تتساوى انت وسائر الناس في الاعجاب بحبيبك، لأن المحب المعقول هو الذي يرى بعين لا يراه بها الاخرون، وكذلك الحياة، قد تكون انت منطقياً اذا عرفتها بالعقل وحده كما يعرفها غير الاحياء لو كان غير الاحياء يعرفون الحياة، ولكنك لا تكون "حياً منطقياً" اذا انت لم تعرفها كما يعرفها كل حي مخدوع بها غارق في غمرة عواطفها واشجانها، فكن لنا حياً منطقياً أو انت اذن انسان لا يعنينا رأيه في الحياة، لأنه ليس منها بمكان قريب او على اتصال وثيق.
والزهاوي تخونه الحقيقة حيث يسعى اليها على جناح من العقل لا يعضده جناح من الشعورن فلم اغتبط بتعرض الشعور لتفكيره مثلما اغتبطت به وهو يحاول –بالمنطق – ان يثبت الرجعة الى هذه الارض بعد الممات او الى عالم آخر ينتقل اليه الانسان، فهو يقول في "المجمل مما أرى" ان "مظاهر الحياة" من مظاهر المادة التي ليست في أصلها الاقوة، وان هذا الفضاء الذي صرحت بأنه لا يتناهى يحتوي على عدد غير متناه من العوالم النجمية، وان في كثير من هذه العوالم نظاماً مثل نظامنا الشمسي، وان في ذلك النظام ارضاً مثل أرضنا وفي بعضها أرض تشبه ارضنا الى زمن محدود ثم تختلف عنها، وان في كل ارض مشابهة لأرضنا انساناً مثلي وآخرين مثل غيرنا من الناس قد ولدوا من آبائهم كما في ارضنا، وقد جرى لآبائهم فيها ما جرى لهم في هذه تماما.
"وبعض هذه الارضين اليوم مثل ارضنا في حالتها الحاضرة وبعضها اخذت تهدم وبعضها في بداءة تألفها، فإذا مات الانسان في ارضنا فهو يولد في غيرها من جديد من نفس آبائه الذين ولد في أرضه هذه منهم، واذ ان الارضين لا تتناهى فكل فرد من الناس غير متناهي العدد، غير انه في كل ارض واحد يجهل ان له امثالا في هذا الكون اللامتناهي، وان الذي يشقى في هذه قد يسعد في التي تشبهها اىل زمن محدود ثم تخالفها فان عدد هذه المخالفات ايضا غير متناه ، والذي يسعد في هذه الفترة قد يشقى في تلك فالطبيعة عادلة قد قسمت السعادة والشقاء على السواء فان زيدا اذا كان هنا شقياً فهو في اخرى سعيد واذا كان سعيدا فهو في تلك شقي، وأرضنا هذه بعد ان تصير الى الاثير تتولد ثانية بعد ربوات الملايين من السنين فيجري عليها تطوراتها طبق ما جرت في دورها هذا ويتولد اباؤنا كما تولدوا ونتولد منهم كما تولدنا ونموت كما في هذه المرة، وقد تكررنا من الازل سوف نتكرر الى الابد..
ورب قائل: ما الفائدة من هذا التكرار وهو لايتذكر ما مر به في ادواره الاولى؟ فأجيب ان فائدة التذكر هي العلم فاذا حصل الينا العلم بطريقة أخرى فهو مثل العلم بالذكر، وكفى به نفعاً انه يطمئن الانسان ان موته مؤقت ليس ابديا، وهذه النظرية مبنية على اسس ثلاثة، الاولى ان العالم بما فيه من الاجرام غير متناه، والثاني ان لاشيء يذهب الى العدم بل ينحل تركيبه وينحل الى الاثير بعد تطورات متعددة، وهذا الاثير يتركب من جديد فيكون مادة بعد تطورات متعددة ثم ينحل ثم يتركب الى ما لا يتناهى ، والثالث ان جواهر كل جرم من الاجرام متناهية العدد مهما كثر هذا العدد، واقدارها كذلك متناهية ولايمكن ان يوجد جرم واحد غير متناهي السعة، والارض هذه تتألف في أزمنة غير متناهية على اشكال متناهية لأن جواهرها متناهية وشكلها الحاضر احد تلك الاشكال غير المتناهية التي تتألف عليها وتدور من احدها الى الاخر فهو كغيره من الاشكال يتكرر الى ما لا نهاية له والانسان جزء متمم لشكلها الحاضر ايضا يعود بشكله وعقله والا لم يكن الدور تاما والعالم اجمع تابع لهذا الناموس الدوري الاعظم".
هذه هي نظرية الدور كما اجملها الاستاذ الزهاوي في رسالته "المجمل ما أرى"
..فالمنطق هنا يتكلم ولكن حب الحياة هو الذي يحركه الى الكلام!
على انه بعد منطق لم يمتزج بالحياة في الصميم لأنه يتعزى بالعلم ، والحياة لا يعزيها أن تعلم بأنها خالدة وإنما يعزيها ان تشعر بالخلود، وهو بعد هذا وذاك منطق خاطئ، لأنه يستلزم الدور ولا شيء يدعو الى استلزامه، فما دامت الجواهر لا تتناهى والحركات لاتتناهى والفضاء لا يتناهى فالنتيجة ان تكون الاجرام بأشكالها لا تتناهى ولا حاجة الى تكرارها وعودتها هي بعينها مرة بعد مرة الى غير نهاية، ويجب ان نضرب صفحا عن لا نهاية الزمان التي تخدعنا باحتمال هذا التكرار فيما يلي أو فيما سبق قبل الان، يجب ان نضرب صفحاً عن لا نهاية الزمان لان لا نهاية الفضاء موجودة في هذه اللحظة، فأي شيء فيها يستلزم ان الارض مكررة في مكان غير مكانها الذي هي فيه؟ لاشيء! واذا لم يكن إنسان مكرراً على هذه الارض بعينها فلماذا نفرض ان كل انسان مكرر في ارض تشبهها تمام الشبه في هذا الفضاء السحيق؟
ثم اين ننتهي من كل ذاك؟ ننتهي الى ان

الزهاوي تخونه الحقيقة حيث يسعى اليها على جناح من العقل لا يعضده جناح من الشعورن فلم اغتبط بتعرض الشعور لتفكيره مثلما اغتبطت به وهو يحاول –بالمنطق – ان يثبت الرجعة الى هذه الارض بعد الممات او الى عالم آخر ينتقل اليه الانسان

الاستاذ الزهاوي صاحب ملكة علمية رياضية من طراز رفيع، وانه يصيب في تفكيره ما طرق من المسائل التي يجتزأ فيها بالاستقرار والتحليل ولا تفتقر الى البديهة والشعور، فمن ينشده فلينشد عالماً ينظم او يجنح الى الفلسفة فهو قمين باصغاء اليه واقبال عليه في هذا المجال، وان خير مكان له هو بين رجال العلوم، ورادة القضايا المنطقية فهو لايبلغ بين الفلاسفة والشعراء مثل ذلك المكان.
عقب مقال العقاد هذا خرج الزهاوي، برده على ما جاء فيه على صفحات "السياسة الاسبوعية" لسان حال الاحرار الدستوريين بمصر.
ولم يدع العقاد رد الزهاوي يمر دون ان يعقب عليه فكتب مقالاً بعنوان "العقل والعاطفة.. حول رد الاستاذ الزهاوي". وكان تاريخ نشره ٢٨ اكتوبر عام ١٩٢٧ وقد انتصر العقاد في رده هذا للعاطفة التي اغفلها الزهاوي لاسيما حينما قال في رده على العقاد بالسياسة الاسبوعية:
"من طار بجناح العقل اخيراً لندبرغ وصل الى باريس من نيويورك في ٣٤ ساعة فليخبرني الاستاذ الى اين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة؟"
يقول العقاد في مقاله هذا:
قرأت في زميلتنا "السياسة الاسبوعية" رداً للاستاذ الزهاوي على مقال كتبته عنه مجيباً به الاديب التونسي الذي سألني ابداء رأيي فيهن وكان فحوى ذلك المقال ان نصيب الاستاذ الزهاوي من الملكة العلمية اكبر وأصلح من نصيبه من الملكة الفلسفية والملكة الشعرية، ولم يرض الاستاذ عن هذا الرأي فكتب رده في السياسة الاسبوعية يناقشه ويناقض الاسباب التي بنيته عليها، فهو يحب ان يقول انه فيلسوف وانه شاعر لايقل حظه من الفلسفة ومن الشعر عن حظه من الملكة العلمية، وليس يضيرني أنا ان يزيد عدد الفلاسفة والشعراء في الارض واحدا أو اكثر ، فانني لم اتكئل بهم ولا تحسب علي اخطاؤهم او يتخلس مني صوابهم، ولست ممن يحبون الجدل في غير حقيقة تحلى او رأي يستوضح ، فإن الجدل الذي يطول فيه الاخذ والرد لغير شيء من هذا هو لغو كلام وفضول بطالة، فاذا رجعت اليوم الى الموضوع فليست رجعتي اليه لحرص على تقليل حظ الزهاوي من الفلسفة والشعر ولا لمطاولة في الجدل وانما هي لاستخراج الحقيقة التي اردتها من رد الاستاذ نفسه وبيان المعنى الذي ذهبت اليه من طريقة الاستاذ في ملاحظة الاشياء وفهم اعمال الناس.
ليس للمجهول ولا للعاطفة حساب كبير في ادراك الاستاذ الزهاوي لأعمال الانسان، ولهذا هو يخطئ في تصورها والحكم عليها ومتابعتها الى اسبابها وغاياتها، وفي رده أدلة كثيرة على حاجة الفيلسوف –فضلاً عن الشعر – الى حسبان ذلك الحساب، وفهم الانسان ومكانه في هذا الكون كما هو انسان في حقيقته لايتصوره الذين يستهدون بالعقل وحده غير معتمدين على البديهة وعلى الشعور واليك بعض هذه الادلة مأخوذة من المقال:
يقول الاستاذ الزهاوي: "من طار بجناح العقل اخيرا لندبرغ وصل الى باريس من نيويورك في ٣٤ ساعة فليخبرني الاستاذ اين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة"؟
وانا مخبره الى اين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة، اخبره انهم وصلوا من نيويورك الى باريس في ٣٤ ساعة ولعلهم يصلون غداً في اقل من هذه الساعات، لأن لندبرغ لم يطر على المحيط الشاسع المخيف بجناح العقل بل بجناح العاطفة وحدها طار، وعلى جناح العاطفة وحدها تلقته الجماهير التي هتفت له هتاف الحمد والاعجاب ولم يسبق لندبرغ طائر في الفضاء ولن يلحق به طائر مثله الا كانت العاطفة هي محركه وهي جناحه وهي جزاؤه اذا نجح وعزاؤه اذا خاب، وليس الطيران كله الا حلما من احلام العواطف أجج الرغبة وألهب الخيال فجاء العقل كالخادم الاجير يحقق ما تعلقت به الاخيلة واتجهت اليه الرغبات.
واي عقل يزين للندبرغ ان يخاطر بحياته بعد كارثة المفقودين في هذا المضمار القاتل؟ واي عقل يزين له ان يرفض المال الذي انثال عليه من شركات الصور وطلاب المحاضرات و المساجلات؟ ليس العقل هو الذي اعطانا الطيارين والات الطيران وإنما هي دوافع الاحساس وبواعث الخيال وهي "العواطف" التي تحمل الانسان على كل جناح اذ قعد به التفكير وحده في قراره العجز والجمود.
ونتجاوز نحن هذا الحد الى ما بعده فنقول ان الغربيين في هذا الزمان يسبقوننا في ميدان الكشف والاختراع لأنهم يطلبون من الحياة فوق ما نطلب لا لأنهم يحسنون ما لانحسنه من الفهم والتفكير، فكل مصنوع يصنعه الغربيون نستطيع نحن الشرقيين ان نفهمه ونصنع على مثاله، ولكننا لا نستطيع البداءة لأنها وليدة البواعث وهي قاعدة عندنا ناهضة عندهم فالتفاوت بيننا وبينهم تفاوت في البواعث أي في الخلق والاحساس وليس تفاوتا في العقل والتفكير، وطريقنا نحن في الاحساس بالامور هي التي ينبغي ان يتناولها الاضلاع وليست طريقتنا في فهم ما يحتاج الى الفهم والتحصيل.
(٢) ويقول الاستاذ الزهاوي: "أنا مادي لا ارى لغير الحواس ابوابا للمعرفة مستثنياً من ذلك معرفة ذاتي، ولا آذن للخيال او العاطفة ان يلجأ باب الشعر الا اذا اطمأننت الى انهما لا يفسدان وجه الحقيقة التي ما زلت اتغنى بها في شعري".
أما الذي اقوله انا فهو ان الحياة هي خلقت الحواس وهي صقلتها وهذبتها وألهمتها ان تعي ما يتصل بها، وان الحياة لم تعلن إفلاسها بعد خلق الحواس ولا قبله، هي شيء أكبر من الحواس وهي على اتصال وثيق لا انفصام له بهذا الوجود قبل ان تفتح بينها و بينه نوافذ الاناف والاذواق والاسماع والابصار، وان الحواس تت فاضل بقدر ما فيها من الشعور والاستمداد من باطن النفس لا من ظواهر الاشياء ، فالدنيا لاتتغير ولكن نظر الشاب اليهاغير نظر الشيخ واحساسه بها على الجملة غير احساسه ، لماذا؟ لأن الحواس تستمد شعورها من القوة الحية التي خلفتها ونوعتها وهي قادرة على تغيير الخلق والتنويع وليس بالمنطق الصحيح ذلك المنطق الذي يجهل ان الوظيفة تسبق العضو، وان القوة الحية تنشيء الحاسة وتزيدها وتهديها فهذه القوة الحية تدرك ما هي فيه وان اختلف اسلوب ادراكها غعن اسلوب الحواس في الادراك، بل لولا هذه القوة الخالقة لما عملت حاسة في الجسم شيئاً، فلتكن للحواس اذن معرفتها المحدودة التي نعهدها في العلوم والصناعات، ولكن لا يغرب عنا ابدا ان وراء هذه الحواس ينبوعاً لاينفد من وسائل الادراك، وان كان إدراكاً لا حد له من الصيغ والتعريفات.

عن كتاب معارك العقاد الادبية تأليف عامر العقاد

بدأت مقالاته تظهر على صفحات اللواء وكذلك قصائده. إلا أن أهم منعطف في حياته هو عمله في صحيفة الدستور الأسبوعية. تعرف العقاد على الأستاذ محمد فريد وجدي وكان كاتباً إسلامياً قديراً نابه الذكر وكان يعد العدة لإصدار صحيفة أسبوعية ناطقة باسم الحزب الوطني شأنها شأن اللواء. وكان وجدي بحاجة إلى من يساعده في التحرير. فتقدم العقاد بالطلب ووافق وجدي على طلبه. وصدر العدد الأول من الصحيفة عام ١٩٠٧م. وقد أعطى العقاد جهده تحريراً وكتابة معجباً بسعة اطلاع وجدي وتسامحه في الرأي. وفي نفس العام تعرف العقاد على سعد زغلول الذي كان يومها وزيراً للمعارف

العقاد مقاليا

د طاهر عزيز

. وأجرى العقاد بعد التعارف حديثاً مع سعد زغلول ووافق محمد فريد وجدي على نشرها رغم عدم رضا الحزب الوطني عن سياسة سعد زغلول في وزارة المعارف. واستمر العقاد ينشر المقالات وتعرف على صديقه الأستاذ إبراهيم عبدالقادر المازني الذي شاركه في الكتابة في الدستور وفجعت مصر عام ١٩٠٨م بوفاة مصطفى كامل

واستمر العقاد في عمله بالدستور حتى عام ١٩١٠م فترك العمل وتوفي والده في ذلك العام. وأصدرت دار الهلال للعقاد أول كتبه «خلاصة اليومية» عام ١٩١٢ وكذلك الشذور عام ١٩١٣هـ والإنسان الثاني عام ١٩١٣م. وفي عام ١٩١٣ م أصدر عبدالرحمن شكري الجزء الثاني من ديوانه فكتب له العقاد مقدمة قيمة. وفي عام ١٩١٤م قدم الجزء الأول من ديوان المازني. وجاء دور العقاد ليخرج أول دواوينه عام ١٩١٦م وهو «يقظة الصباح». وقد احتوى الديوان على قصائد عديدة منها «فينوس على جثة أدونيس» وهي مترجمة عن شكسبير وقصيدة «الشاعر الأعمى» و«العقاب الهرم» و«خمارويه وحارسه» و«رثاء أخ» و«ترجمة لقصيدة الوداع» للشاعر الاسكتلندي برنز، ومن ذلك اليوم شجر الخلاف بين شداة الأدب. فالجميع متفق على مكانة العقاد في النثر والنقد إلا أن شاعرية العقاد كانت مثار الخلاف فمنهم من يرى أن لشعر العقاد مكانة عالية ومن أولئك د. طه حسين وإبراهيم عبدالقادر المازني وعبدالرحمن شكري وعبدالرحمن صدقي وعلي أدهم وسيد قطب. ومنهم من رأى أن الرجل متوسط القامة في الشعر من أمثال ما رون عبود ومحمد مندور. وقصيدة «الحب الأول» في ديوان «يقظة الصباح» من أعظم قصائد الديوان وهي قصيدة طويلة يعارض به ابن الرومي. وقد أعجب بها كثير من النقاد بينما يرى آخرون أنه سطا فيها على كثير من شعراء التصوف الإسلامي يقول فيها العقاد:

يا من يراني غريقاً في محبته
وجدا ويسألني هل أنت غصان
واصنيعة الحب أبديه وأكتمه
ومن عنيت به عن ذاك غفلان
لي في محياك أشعار أضن بها
على امرىء فخره عرش وأيوان
على محياك من وشى الصبا.. روع
وللمحبين أحداق وأعيان
إن الجسوم مثناه جوارحها
إلا القلوب فصيغت وهي أحدان
لكل قلب قرين يستتب به
خَلق وخُلق فهل يرضيك نقصان

وتقوم الحرب العالمية الأولى وينفى سعد من البلاد وتتوثق صداقة العقاد مع زعيم الوفد ويصبح كاتب الوفد الأول ويصيب شهرة مدوية في البلاد. وفي هذه الأثناء رجع شوقي من المنفى وبدأ العقاد في تأليف كتاب «الديوان في النقد والأدب».. للهجوم على شوقي وقد اشترك المازني معه في تأليف الكتاب الذي صدر عام ١٩٢١م، وقد بدأ العقاد في الهجوم على شوقي متناولاً قصيدة شوقي في رثاء مصطفى كامل وهي قصيدة مطولة. وقد حاول العقاد تأصيل منهج حديث لنقد الشعر يقول العقاد: اعلم – أيها الشاعر العظيم أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصي أشكالها وألوانها وان ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه وإنما مزيته أن يقول ما هو ويكشف عن

لبابه وصلة الحياة به. وليس هم الناس من القصيدة أن يتسابقوا في أشواط البصر والسمع وإنما همهم أن يتعاطفوا ويودع أحسهم وأطبعهم في نفس إخوانه زبدة ما رآه وما سمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه».وأصبح الكاتب ذائع الصيت واسع الشهرة في أنحاء العالم العربي ويصل صوته جهيراً إلى أدباء المهجر من أمثال ميخائيل نعيمة الذي أرسل إلى الشاب العقاد كتابه «الغربال» ليكتب له مقدمته فيوافق العقاد وتصدر الطبعة الأولى في دار الهلال. وفي عام ١٩٢٢م أصدر العقاد كتابه «الفصول». وقد وضع الكاتب قلمه في ركاب سعد زغلول والثناء عليه. وفي عام ١٩٢٣م كتب العقاد في صحيفة الأخبار التي رأس تحريرها أمين الرافعي.

وفي عام ١٩٢٦م وقع الأديب العقاد في حب سارة وهو حب عاثر قصته أشبه بقصة آلام مزتر وقد سجلها العقاد بعد ذلك في قصته «سارة». وأما سارة فقد ذكر اسمها الحقيقي الأستاذ علي أدهم في مقاله في الهلال وكذلك عامر العقاد في كتابه عن عمه، وأحب العقاد في نفس الوقت مي زيادة التي كان يتردد على صالونها، الصالون الذي قال عنه إسماعيل صبري:

إن لم أمتع بمي ناظري غدا
أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء
وانتهت القصتان بألم مرير عاشه العقاد طوال حياته. وقد رثى حبه مع مي بعد أن علم بهيامها بمعاصرها اللبناني جبران خليل جبران. يقول العقاد:

ولد الحب لنا وامزحتاه
وقضى في مهده وأسفاه
مات لم يدرج ولم يلعب ولم
يشهد البلوى ولم يعرف أباه
ليته عاش فأما إذ.. قضى
فليكن برداً على القلب جواه
أشكر الموت وأشكوه معاً
غال حبي قبلما تنمو قواه
غاله وهو صغير قبلما
تكبر البلوى به يوم نواه
كنت أرجوه للبلى كلما
لجت الحيرة بي تحت دجاه
كنت أرجوه ليومي كلما
عزني في مطلع الشمس هداه

وبدأ العقاد مقالاته في البلاغ الأسبوعية منذ صدورها سنة ١٩٢٣م فكتب مقالاً أسبوعياً حتى عام ١٩٢٩م وفي أثناء هذه المقالات توفي سعد زغلول صديقه. وأصدر كتابه «ابن الرومي» حائزاً اعجاب النقاد والقراء.. وبعد شهر من صدور الكتاب أدخل العقاد السجن بتهمة العيب في الذات الملكية. فلبث في سجن قرة ميدان لمدة تسعة أشهر وبعد خروجه توجه إلى قبر صديقه سعد زغلول منشداً قصيدته:

إلى الذاهب الباقي ذهاب مجدد
وعند ثرى سعد مثاب ومسجد
وكنت جنين السجن تسعة أشهر
منها أنذا في ساحة الخلد أولد
وخرج من غيابة السجن متابعاً مواقفه حتى حصل الخلاف بينه وبين مصطفى النحاس. ففي عام ١٩٣٣م قامت وزارة توفيق نسيم فأيدها مصطفى النحاس وهاجمها العقاد.فاستدعى مصطفى النحاس باشا العقاد لمقابلته بمنزل النحاس بالأسكندية.ووصل العقاد وكان معه محمد طاهر الجبلاوي. وعند المقابلة كان هذا الحوار:

مصطفى النحاس: لماذا تحمل على الوزارة يا أستاذ.. يا عقاد؟

العقاد: لأنها انحرفت عن الطريق السوي وتماطل في إعادة الدستور وتعمل لصالح الإنكليز.

النحاس: ولكن الوفد يؤيد هذه الوزارة.

العقاد: لن أقف وقفة الاغضاء عن مساوىء الوزارة.

النحاس: أنا زعيم الأمة أؤيد الوزارة فما عساك تصنع يا عباس يا عقاد.

العقاد: أنت زعيم الأمة لأن هؤلاء انتخبوك ولكنني كاتب الشرق بالحق الإلهي.

النحاس: إن الوزارة باقية ما دام الوفد يؤيدها.

العقاد: لن تنتهي برية هذا القلم إلا وقد انتهى أجل هذه الوزارة.

وكانت النهاية بين العقاد وحزب الوفد وقد حارب الوفد العقاد فمنع من الكتابة في البلاغ الأسبوعي، فكتب العقاد في الجهاد والأهرام في الثلاثينيات.

وفي الثلاثينيات أصدر العقاد «تذكار جيتي» و«ديوان وحي الأربعين» و«حياة سعد زغلول» سنة ١٩٣٦م. ومن أهم ما أصدر في الثلاثينيات قصته الذائعة الصيت «سارة» التي سجل فيها هيامه بسارة وحبه لهند. وهند في الرواية هي الأديبة مي زيادة. ويبدو أن العقاد لم تزل نفسه تنبض بحب سارة. انظر إلى قوله «لونها كلون الشهد المصفى يأخذ من محاسن الألوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء في مسحة واحدة. وعيناها نجلاوان وطفاوان تخفيان الأسرار ولا تخفيان النزعات فيهما خطفة الصقر ودعة الحاجة. وفمها فم الطفل الرضيع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد في تناسق وانتظام ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة واستدارة وجه وبضاضة جسم».

وتقوم الحرب العالمية الثانية ويقف الأديب موقفاً معادياً للنازية جلب له المتاعب. وأعلنت أبواق الدعاية النازية اسمه بين المطلوبين للعقاب.. وما ان اجتاحت جنود روميل الصحراء واقتربت من أرض مصر حتى تخوف العقاد لما لمقالاته النارية من وقع على النازية تلك المقالات التي جمعها بعد ذلك في كتابين هما «هتلر في الميزان» و«الحرب العالمية الثانية» فآثر العقاد السلامة وسافر عام ١٩٤٣م إلى السودان حيث احتفى به أدباء السودان حفاوة بليغة. وهزم النازي ورجع العقاد إلى قاهرته.

وبعد الحرب، بدأ العقاد سلسلة كتبه الإسلامية حيث أصدر بين نهاية الحرب وأوائل سنة ١٩٥٠م عدداً منها مثل «عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم» و«مطلع النور» و«عبقرية الصديق» و«عبقرية عمر» و«بلال مؤذن السماء» و«عبقرية الإمام» وغيرها.وفي ٢٣ يوليو ١٩٥٢م انتهى حكم أسرة محمد علي باشا وقد تميزت فترة الخمسينيات عند العقاد بمزيد من الكتب الإسلامية مثل «ما يقال عن الإسلام» و«الإسلام في القرن العشرين» و«المرأة في القرآن».

في عام ١٩٢٦م وقع الأديب العقاد في حب سارة وهو حب عاثر قصته أشبه بقصة آلام مزتر وقد سجلها العقاد بعد ذلك في قصته «سارة». وأما سارة فقد ذكر اسمها الحقيقي الأستاذ علي أدهم في مقاله في الهلال وكذلك عامر العقاد في كتابه عن عمه، وأحب العقاد في نفس الوقت مي زيادة التي كان يتردد على صالونها

كيف نظر العقاد إلى الألطاف الخفية؟

د. نضير الخزرجي

للأديب المصري عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤م) (١٣٠٦-١٣٨٣هـ)، مقولة شهيرة في النهضة الحسينية، وتأثيرها على واقع الأمة السياسي والإجتماعي، حيث يقول: (ثورة الحسين، واحدة من الثورات الفريدة في التاريخ لم يظهر نظير لها حتى الآن في مجال الدعوات الدينية أو الثورات السياسية. فلم تدم الدولة الأموية بعدها حتى بقدر عمر الإنسان الطبيعي، ولم يمض من تاريخ ثورة الحسين حتّى سقوطها أكثر من ستين سنة ونَيّف)، وقد أصاب الفَقيد العقاد كبد الحقيقة، فلم تظهر لنهضة الحسين (ع) ما يماثلها في الأثر والتأثير حتى يومنا هذا، ولن تظهر أبدا، إذ لا يوم كيوم الحسين (ع) في كربلاء.

وقد لا يعلم الكثير، فإن للعقاد مع الإمام الحسين (ع) قصة طريفة لا يمكن وضعها في خانة الحس والوجود، ففي واحدة من الزيارات الى الجامعة العالمية للعلوم الاسلامية بلندن، بوصفي خريجها، التقيت مطلع يونيو حزيران ٢٠٠٨م، بأستاذي وعميد الدراسات العليا الدكتور ابراهيم العاتي (المولود في النجف الأشرف عام ١٩٤٩م)، وضمن الحديث عن الثقافة والغيب، قال الدكتور العاتي أنه في السبعينات وأثناء وجوده في القاهرة للتحضير للدراسات العليا، قرأ مقالة للكاتب المصري أنيس منصور (المولود قرب المنصورة عام ١٩٢٤م) في جريدة أكتوبر القاهرية حيث دأب منصور على الحضور كثيراً في صالون الأديب المصري عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤م) (١٣٠٦-١٣٨٣هـ)، والكتابة عما كانت تجري فيه من أحاديث متفرقة في أبواب شتى، بمحضر عدد من أدباء ومثقفي مصر.

واستطرد الدكتور العاتي، أنه قرأ في إحدى حلقات أنيس منصور، أن العقاد كان شديدا وحانقا على الحزب الشيوعي المصري واليسار عموما، وكان يطلق عليهم وصف (أصحاب العاهات)، وقد غضبوا عليه وقرروا اغتياله، لما للسانه وقلمه من وقع كبير على المجتمع المصري والعربي. مضيفا: أن العقاد كان قد ألف كتابا بعنوان "أبو الشهداء الحسين بن علي"، وعلى أثر الكتاب كان قد تسلّم هدية من سادن الروضة الحسينية - السيد عبد الصالح بن عبد الحسين آل طعمة (١٣٢٩-١٤٢٦هـ) المولود في كربلاء المقدسة والمتوفى في لندن والمدفون في مسقط رأسه، تولى السدانة من أبيه عام ١٣٤٩هـ حتى العام ١٤٠١هـ - عبارة عن قرآن كريم ملفوف بقطعة قماش من مرقد الامام الحسين (ع)، فتسلمها العقاد بيد الشكر والإمتنان ووضعها فوق مكتبته الشخصية في غرفته المطلة نافذتها على شارع السلطان سليم في البيت رقم ١٣، بحيث كان الطارق يرى الجانب العلوي من جسد العقاد اذا ما جلس في غرفته للمطالعة والكتابة.

وفي إحدى مقالاته عن صالون العقاد تطرق الكاتب أنيس منصور إلى عقلانية العقاد، وكان العقاد في إحدى جلساته قد أبان عن رأيه بالغيب والحضور والعقلانية واللاعقلانية، ومما قاله العقاد: انه رغم عقلانيته ولكن لا مندوحة من الإيمان بما لا يمكن للعقل والحس إدراكه، فبعض الحوادث تحصل دون أن تجد لها تفسيرا، ومن ذلك، انه كان جالسا في غرفته وفي لحظة واحدة ومن دون ما سبب سقط القرآن الكريم الموشّى بقطعة القماش الحسينية، وعندما انحنى العقاد بشكل لا إرادي لتناول القرآن الكريم والحيلولة دون سقوطه على الأرض، اخترقت نافذة غرفته في هذه اللحظة صلية إطلاقات نارية مستهدفة حياته، نزلت في الجدار ولم تصبه!

أقول فالملازمة بين سقوط الكتاب الكريم من غير ما مسبب ظاهر والنجاة من محاولة الاغتيال الفاشلة لا يمكن للحس أن يجد لها تفسيرا شهوديا وحضوريا، فالتفسير نجده في عالم الغيب، على أن أثاره العيانية ظاهرة في عالم الحضور.

وعودة الى مقالات الكاتب أنيس منصور، وأحاديث العقاد ومناقشاته في صالونه، الذي خرجت في كتاب صدر عن دار الشروق بالقاهرة في طبعته الأولى عام ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ تحت عنوان (في صالون العقاد كانت لنا أيام) في ٧٠٢ صفحة من القطع الكبير، وكان قد انتهى من نشر آخر حلقاته في الجريدة في ١٩٨١/١٠/٦م، فقد جاء في الصفحة ٦٤٢، ان العقاد احتفظ ببيته كما وجدوا بعد موته .: "قطعة قماش سوداء من الكعبة وقطعة قماش ذهبية من مسجد كربلاء بعث بها أئمة الشيعة في العراق".

وحول علاقة العقاد بالإمام الحسين (ع)، يقول أنيس منصور في الصفحة ٦٣٥ من الكتاب ما نصه: قال د. عبد العزيز الأهواني وكان عائدا من أسبانيا: أمس كنت أزور أحد الشيعة في سيدنا الحسين، فقال إنه زار الأستاذ – العقاد- ولكنه لم يستطع أن يدخل بيته، فقد شمّ رائحة بخور قوية جدا، كالتي يشمها الشيعة عند دخولهم مسجد كربلاء، إنها رائحة أهل البيت، وإن الذي كتبه العقاد عن علي وبنيه وفاطمة الزهراء كفيل بأن يدخله الجنة مع الأئمة، وإن الرجل عندما اطمأن على الأستاذ اكتفى بهذا القدر، وعاد الى بيته يحمد الله على النعمة الضافية الزاخرة التي حظى بها واحد من أعظم المفكرين الإسلاميين في كل العصور.. إني لا أعرف إن كان هذا البخور حقيقة أو خرافة، ولكن من المؤكد أن العقاد كان رجلا عظيما ومفكرا عبقريا".

ربما يكون من حق الدكتور الأهواني المتوفى عام ١٩٨٢م أن يشكك في حقيقة البخور، لأن التبخر في نظره هو من فعل العامة وليس من فعل عليُّة القوم، وإن تشكيكه ناتج عن عدم تقبل فكرة أن يقوم مفكر وأديب كبير مثل العقاد بالتبخر ببخور مسجد الحسين (ع)، ويعتبر الدكتور الأهواني من منظري الفكر القومي الليبرالي الإشتراكي، وله كتاب "أزمة الوحدة العربية: أبحاث حول الإشتراكية والعَروبة" صادر عام ١٩٧٢م.

ولكن الحقيقة هي الحقيقة، فالإمام الحسين (ع) في قلب كل مسلم، بل هو في قلبِ كل عاشق للحرية، ولا يهوى الحرية إلا من كان مرهف الحس، مسلماً كان أو غير مسلم، فالحرية أمر فطري، والناس تواقة لركوب الفلك الذي يكون ربانه حراً، فكيف وربّان فلك الحرية هو أبو الأحرار الذي قال في عرصات كربلاء: والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ لهم إقرار العبيد.

الرأي الآخر للدراسات - لندن

منارات

الاشراف اللغوي	التصميم	التحرير
محمد السعدي	مصطفى محمد	على حسين